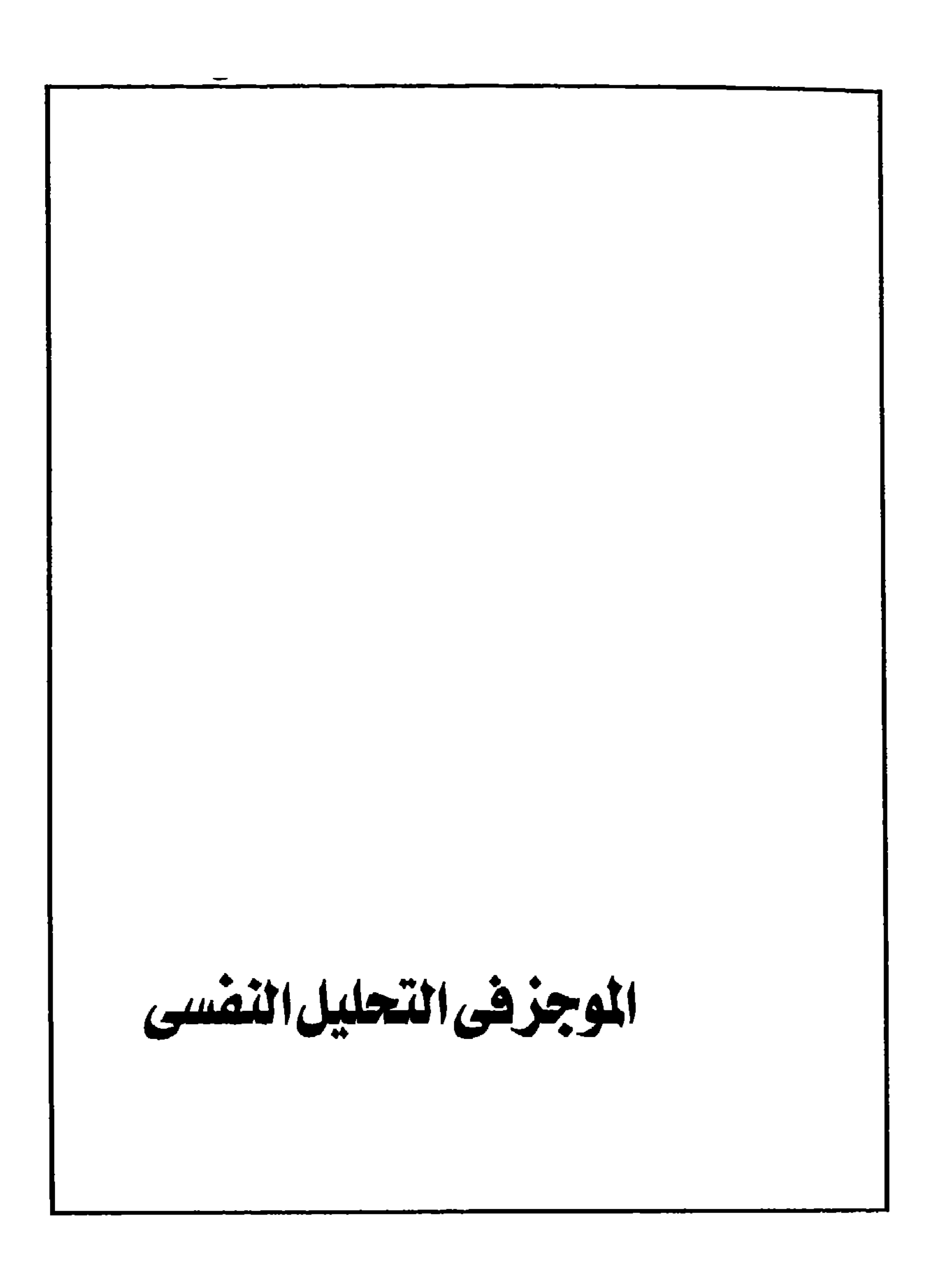


الموجز في التحليل النفسى

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: أحلام طائرة ١٩٣٦

التقنية : زيت على خشب		المقاس: ٢٧,٥٠ × ٣٦,٥سم

مقتنيات: متحف نيويورك

خوان ميرو (١٨٩٣ - ١٩٨٥)

مصور أسباني، درس الفن في برشلونة، ورحل إلى باريس عام ١٩١٩ مشدوداً إلى الحركة التكعيبية، ثم ارتبط بالحركة السريالية(*)، وابتكر لغة فنية رمزية تتميز بأسلوب خيالي، يلجأ إلى الألوان الزاهية المتألقة، والتكوينات المدروسة بعناية فائقة. وتستند أعماله إلى أساس واقعي تتفاعل بين الحي والروحي.

محمود الهندي

الموجز في التحليل النفسي

تأليف : سيجموند فرويد

تقديم : د. محمد عثمان نجاتي

ترجمة : سامي محمود علي

عبدالسلام القفاش

مراجعة : مصطفى زيوار

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

د. محمد عناني



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أمهات الكتب)

الموجز فى التحليل النفسى

تأليف: سيجموند فرويد

تقديم: د. محمد عثمان نجاتى

ترجمة: سامى محمد على
عبدالسلام القفاش

مراجعة: مصطفى زيوار

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تصدير

يخلط الكثيرون بين علم النفس وبين التحليل النفسى ، إذ إن ذيوع صيت سيجموند فرويد وشيوع نظرياته فى التحليل النفسى ، وخصوصا تسرب المصطلحات التى نحتها أو وضعها أو عدّلها إلى لغة الحياة اليومية، أدى إلى تصور غير المتخصصين أن علم النفس هو فرويد وأن فرويد هو علم النفس ، وكافح المتخصصون فى علم النفس بفروعه العديدة ردحًا طويلاً لإيضاح الاختلاف وإلقاء الضوء على مجالات علم النفس الكثيرة التى لا علاقة لها بالتحليل النفسى ، كما برز من بين علماء النفس وغيرهم من دأبوا على مهاجمة فرويد حتى أتى الوقت التى ظن الكثيرون أن فرويد قد أقصى تمامًا عن ساحة علم النفس ، أو أن دولته قد دالت ، حتى برزت «النظرية النقدية» الحديثة ، وكان من أهم أعلامها چاك لاكان Lacan الذى استند إلى نظريات فرويد فى التحليل النفسى وأقام منهجًا كاملاً من التحليل النقدى القائم على المصطلح الفرويدى والذى يتوسل بكل ما قاله ذلك العالم الرائد ، كما كان من أعلامها دعاة نصرة المرأة أو ما يسمى بالنقد النسوى Feminism ، الذى

استمد من فرويد بعض المـفاهيم الأساسية وارتكن إلى بعض نظرياته فى تحليل الانحـيـار ضد الـمرآة الذى يبـرز فى كـتـابات السلف ، بل إن إليزابيث رايـت Wright أصـدرت معجمًا خـاصًا بالتحليل النفسى مـن وجهة نظر هذا النقـد، وإذا بالكُتّاب يتسارعون فى العقـدين الأخيرين من القرن العـشرين إلى إعادة النظر فـى الموقف العدائى تجـاه فرويد ، بل ذهب بعضـهم إلى محاولة رد اعتـباره استنادًا إلى أن التـحليل النفسى ، مهما يكن من معارضة علماء النفس له ، مجال مهم ولا يمكن إغفاله أو إقصاؤه عن الساحة العلمية .

ويسعـد مكتبة الأسـرة هذا العام (٢٠٠٠) أن تقدم هذا المـوجز فى التحليل النفسى الذى كتبه فرويد وترجمه اثنان من المتخصصين عن اللغة الألمانية مباشرة ، وراجعه أستاذ مرموق هو الدكتور مصطفى زيوار ، وهو بهذه الصـفة من أمـهات الكتب اللازمـة لكل من يستـخدم مصـطلحات التـحليل النفـسى فى غضـون الدراسة الأدبيـة ، بل ولكل من يقـرأ هذه المصطلحات فى حـياته اليومية ، فهـو دليل لا غنى عنه ، خصوصًا وأن الكتاب يشتمل على ملحق أعده الدكتـور سامى محمود على بالمصطلحات والمفاهيم الأساسية المترجمة والمشروحة بالعربية .

والله من وراء القصد ،

مكتبة الأسرة

مقدمة

بقلم

الدكتور محمد عثمان نجاتى

أستاذ علم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة

تاريخ حياة فرويد :

ولد سيجموند فرويد فى عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فرايبرج بمورافيا التى تعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا . وفى سن الرابعة انتقل مع أسراته إلى مدينة فيينا حيث نشأ ودرس الطب فى جامعتها .

وقد اهتم فرويد اهتماماً خاصاً بالأبحاث الفسيولوجية والتشريحية المتعلقة بالجهاز العصبى . واشتغل وهو لا يزال طالباً فى معمل إرنست بروك E. Bruck الفسيولوجى ، وقام بعدة أبحاث فى تشريح الجهاز العصبى . وفى عام ١٨٨١ حصل على الدكتوراه فى الطب ، وعين مساعدا لإرنست بروك فى معمله . وفى عام ١٨٨٢ اشتغل طبيباً فى المستشفى الرئيسى بفيينا . ونشر بعض الأبحاث الهامة فى تشريح الجهاز العصبى وفى الأمراض العصبية ، مما لفت إليه الأنظار . وفى عام ١٨٨٥ عين محاضرا فى علم أمراض الجهاز العصبى .

ونشأت فى تلك الفترة صداقة بين فرويد وجوزيف بروير Joseph Breuer أحد أطباء فيينا المشهورين ، وقد تأثر فرويد به تأثرا كبيرا . وقد كان بروير يستخدم الإيحاء التنويمى فى معالجة مرضاه . واكتشف أثناء علاجه لفتاة مصابة بالهستيريا أن المريضة ذكرت أثناء نومها حوادث ماضية لم لم تستطع تذكرها أثناء اليقظة . ورأى بروير أن ذكر المريضة لهذه الحوادث والتجارب الشخصية القديمة ، والإفضاء بالعواطف والانفعالات المعلقة بها والتى كانت من قبل مكبوتة ، كان له أثر كبير فى شفاء المريضة . وقد سمى بروير فيما بعد هذه الطريقة فى العلاج «بطريقة التفريغ» Cathartic Method . وذكر بروير لفرويد قصة علاجه لتلك الفتاة ، فأعجب فرويد بطرافتها وبنجاحها فى شفاء المريضة ، ولكنه لم يعلق عليها فى ذلك الوقت أهمية كبيرة .

وفى عام ١٨٨٥ رحل فرويد إلى باريس للدراسة فى جامعة سالبتريير حيث كان شاركو يقوم بأبحاثه فى الهستيريا . وشاهد فرويد بنفسه بعض هذه الأبحاث التى أثبتت إمكان إحداث أعراض الهستيريا بالإيحاء التنويمي، وإمكان إزالتها بالإيحاء أيضاً . وقد أكدت هذه التجارب التشابه التام بين الهستيريا التى تحدث عن الإيحاء وبين الهستيريا التى تشاهد بين المرضى . ثم عاد فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦ ، واشتغل طبيباً خاصاً مع استمراره فى وظيفته التدريسية ، وأخذ فرويد فى تطبيق ما تعلمه من شاركو ، وحاول إقناع أطباء فيينا بإمكانه إحداث الهستيريا

بالإيحاء التنويمى ، فقوبل بمعارضة شديدة . غير أن فرويد استمر فى مواصلة بحثه العلمى كطبيب خاص يعالج مرضاه بوساطة الإيحاء التنويمى ، ولم يلبث فرويد طويلا حتى اتضحت له بعض العيوب فى فنه التنويمى ، إذ تبين له أنه لا يستطيع أن ينوم بعض مرضاه . وقد جعله ذلك يشعر بأنه لا زال فى حاجة إلى تحسين فنه التنويمى ، فسافر فى عام ١٨٨٩ إلى مدينة نانسى بفرنسا ، وقضى فيها عدة أسابيع فى اتصال بالطبيبين ليبولت Liebault وبرنهايم Bernheim .

ولما عاد فرويد بعد ذلك إلى فيينا جدد اتصاله بجوزيف بروير ، واشتركا معاً فى مواصلة البحث العلمى فى أسباب الهستيريا وطرق علاجها ، وقد نشرا معاً فى عام ١٨٩٣ بحثاً فى « العوامل النفسية للهستيريا » ، وفى عام ١٨٩٥ نشرا كتاب « دراسات فى الهستيريا » ، ويعتبر هذا الكتاب الأخير نقطة تحول هامة فى تاريخ علاج الأمراض العقلية والنفسية ، فقد احتوى على البذور الأولى التى نمت منها فيما بعد نظرية التحليل النفسى . وقد أشار المؤلفان فى هذا الكتاب إلى أهمية الدور الذى تلعبه الحياة العاطفية فى الصحة العقلية الشعورية وبين الحالات العقلية اللاشعورية ، وذهبا إلى أن الأعراض الهستيرية تنشأ عن كبت الميول والرغبات ، فتتحول تحت تأثير هذا الكبت عن طريقها الطبيعى ، وتتخذ لها منفذاً عن طرق شاذة غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية ، وشرح المؤلفان « طريقة التفريغ » وبينا قيمتها العلاجية فى

شفـاء الهستـيريا، وتتلخص هذه الطريقة فى حث المـريض أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الحوادث والخبرات الشـخصية الماضية ، وعلى « التنفـيس » abreaction عن العـواطف والانفـعـالات المكبـوتة ولذلك سميت هذه الطريقة فى العلاج بطريقة التغريغ . ويرجع الفضل فيما جاء فى الكتاب من آراء جديدة إلى بروير ، كما اعـترف بذلك فرويد نفسه . وقـد ساعـدت ملاحظات فـرويد وتجاربه الـعديدة على تأييـد آراء بروير وإثبات صحتها .

ثم أخذت آراء فرويد تختلف عن آراء بروير ، فـدب بينهما الخلاف ، وانقطعت بينهـما الصلة ، وحـدث أول خلاف بينهمـا حينمـا حاولا تفسير العوامل النفسية المـسببة للهستريا بانقطاع الصلة بين حالات النفس الشعورية ، وفسر الأعراض الهستيرية بحالات شبه تنويمية ينفذ أثرها إلى الشعـور ؛ أما فرويد فقـد كان يرى أن الانحلال العـقلى يحدث نتيـجة صراع المـيول وتصادم الرغـبات . واعتـبر الأعراض الهسـتيرية أعـراضاً دفاعـية نشـأت تحت ضغط الدوافع المكبـوتة فى اللاشعـور التى تحاول التنفيس عن نفسها بشـتى الطرق . ولما كان ظهور هذه الدوافع المكبوتة فى الشعـور أمراً غير مـقبول للنفس ، فإنهـا تحاول التنفيس عن نفـسها بطرق غير طبيـعية هى الأعراض الهستيـرية . وحدث الخلاف الثانى بين فرويد وبروير حينمـا أخذ فرويد يعتبر الغريزة الجنـسية السبب الأول فى حدوث الهستيريا ، ولم يوافق بروير على هذا الرأى وعارض فرويد فيه ، كما عارض فى ذلك جمهور الأطباء فى عصره .

ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يواصل أبحاثه منفرد فى عزم لا يلين ، وفى ثبات لم تزعزعه هجمات خصمه وبدأت تكشف له ملاحظاته وأبحاثه عن الدور الذى تلعبه الغريزة الجنسية فى مرض الهستيريا ، وقد دفعه ذلك إلى توسيع دائرة بحثه ، فأخذ يدرس الأنواع الأخرى من الأمراض العصابية ، ويبحث عن علاقة الغريزة الجنسية بها ، وقد أدت أبحاثه إلى اقتناعه بأن اضطراب الغريزة الجنسية هى العلة الرئيسية فى جميع هذه الأمراض .

كان فرويد حتى الآن يستخدم « طريقة التفريغ » أثناء التنويم ، وهى الطيقة التى اكتشفها بروير ، ثم أخذ فرويد يفطن إلى مافى التنويم من عيوب ، فرأى أن بعض المرضى لايمكن تنويمهم ، كما رأى أيضا أن الشفاء الذى ينتج عن التنويم كان مقصوراً فقط على إزالة الأعراض المرضية ، ولم يتناول العلل الرئيسية التى تنتج عنها هذه الأعراض ، كما أن الشفاء كان وقتياً فقط لا يلبث أن يزول أثره بعد فترة طويلة أو قصيرة، فتعود الأعراض نفسها أو غيرها إلى الظهور مرة أخرى ، ورأى فرويد أيضاً أن نجاح العلاج يتوقف على استمرار العلاقة بين المريض وطبيبه ، ودعاه ذلك إلى أن يفطن إلى أهمية الدور الذى تلعبه الرابطة الإنسانية فى العلاج ، ولم تكن الرابطة الإنسانية تظهر بوضوح أثناء التنويم المغناطيسى .

لكل هذه الاعتبارات رأى فرويد أن يعدل عن استخدام التنويم ، وبدأ يحث مرضاه عن طريق الإيحاء وهم فى حالة اليقظة على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية .

ثم ظهرت لفرويد - فيما بعد - عيوب هذه الطريقة أيضاً ، فقد وجد أنه لا يستطيع دائماً باستخدام الإيحاء وحده دفع مرضاه إلى تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم . هذا فضلا عما فى هذه الطريقة من مشقة وإرهاق لكل من الطبيب والمريض ، فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة وبدأ يطلب فقط من مرضاه أن يطلقوا العنان لأفكارهم تسترسل من تلقاء نفسها دون قيد أو شرط ، وطلب منهم أن يفوهوا بكل مايخطر ببالهم أثناء ذلك من أفكار وذكريات ومشاعر دون إخفاء أى شئ عنه مهما كان تافهاً أو معيباً أو مؤلماً ، وتعرف هذه الطريقة التى ابتكرها فرويد بطريقة « التداعى الحر» free association .

وباستخدام التداعى الحر بدأت تنكشف أمام فرويد حقائق هامة حقائق هامة لم يكن من المستطاع الاهتداء إليها من قبل حينما كان العلاج يتم فقط أثناء التنويم . ابتدأت تتضح لفرويد أسباب التى تجعل تذكر بعض الحوادث والتجارب الشخصية الماضية أمرا صعباً . فقد رأى أن معظم هذه التجارب مؤلم أو مشين للنفس . وهكذا بدا لفرويد أن سبب نسيانها هو كونها مؤلمة أو مشينة ، ولهذا السبب كانت إعادتها

إلى الذاكرة أمراً شاقاً يحتاج إلى مجهود كبير للتغلب على المقاومة re-sistance الشديدة التى كانت دائماً تقف ضد ظهور هذه الذكريات فى الشعور The conscious ومن هذه الملاحظات كون فرويد نظريته الهامة فى الكبت Repression التى قال عنها إنها الحجر الأساسى الذى يعتمد عليه جميع بناء التحليل النفسى وأهم جزء فيه .

وذهب فرويد إلى أن الكبت يحدث فى الأصل عن الصراع بين رغبتين متضادتين ، وذكر نوعين من الصراع بين الرغبات ، ويحدث أحدهما فى دائرة الشعور ، وينتهى بحكم النفس فى صالح إحدى الرغبتين والتخلى عن الأخرى ، وهذا هو الحل السليم للصراع الذى يقع بين الرغبات المتضادة ، ولا ينتج عنه ضرر للفنس ، وإنما يقع الضرر من النوع الثانى ، من الصراع الذى تلجأ فيه النفس بمجرد حدوث الصراع إلي صد إحدى الرغبتين عن الشعور وكبتها دون إعمال الفكر فى هذا الصراع وإصدار حكمها فيه ، وينتج عن ذلك أن تبدأ الرغبة المكبوتة حياة جديدة شاذة فى « اللاشعور » The Unconscious وتبقى هناك محتفظة بطاقتها الحيوية ، وتظل تبحث عن مخرج لانطلاق طاقتها المحبوسة ، فتجده فى الأعراض المرضية التى تنتاب العصابيين . وعلى ضوء هذا التفكير رأى فرويد أن مهمة الطبيب النفسى ليست هى دفع المريض إلى « التفريغ » و « التنفيس » عن الرغبات المكبوتة كما كان يفعل بروير وفرويد من قبل، بل هى الكشف عن الرغبات المكبوتة

لإعادتها مرة أخرى إلى دائرة الشعور لكى يواجه المريض من جديد هذا الصراع الذى فشل فى حله سابقاً ، فيعمل الآن على حله بإصدار حكمه فيه تحت إرشاد الطبيب النفسى وتشجيعه ، هى إحلال الحكم الفعلى محل الكبت اللاشعورى ، ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يسمى طريقته فى العلاج بالتحليل النفسى.

قضى فرويد عشر سنوات (١٨٩٦ - ١٩٠٦) منذ انفصال بروير عنه يعمل منفرداً فى جمع ملاحظاته ، ومواصلة أبحاثه ، وتكوين نظرياته ، فى وقت حرمته المجتمعات العلمية كل تشجيع وتأييد . ثم ابتدأت الأمور تتبدل ابتداء من عام ١٩٠٢ حينما التف حول لأول مرة نفر قليل من شباب الأطباء المعجبين بنظريته الجديدة بقصد تعلم مبادئها واكتساب الخبرة فيها ، ثم أخذ عددهم يزداد رويداً رويداً ، وبدأ ينضم إليهم أفراد من غير الأطباء من أهل الأدب والفنون .

ثم أخذت المعرفة بالنظرية الجديدة تنتشر بين الأطباء فى كثير من البلاد ، وخاصة فى سويسرا حيث أكتسبت الحركة الجديدة صداقة أوجين بلولر Eugene Bleuler المشرف على معهد الأمراض العقلية بالمستشفى العام بمدينة زيوريخ ، ويونج Jung ، أحد مساعدى بلولر . وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفسى بمدينة زيوريخ بدعوة من يونج حيث تقرر إصدار مجلة للتحليل النفسى تحت إدارة فرويد وبلولر ، وأسندت رياسة التحرير إلى يونج . وكان ذلك بدء صفحة جديدة فى تاريخ حركة التحليل النفسى .

وفى عام ١٩٠٩ دعت جامعة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد ويونج للاشتراك فى احتفال الجامعة بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيسها فاستقبل فرويد وزميله فى أرض الدنيا الجديدة استقبالاً رائعاً وقوبلت محاضرات فرويد الخمس والمحاضرتان اللتان ألقاهما يونج بجامعة كلارك مقدمة حسنة .

وفى عام ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى التحليل النفسى فى مدينة نورمبرج حيث تم تأليف « جمعية التحليل النفسى الدولية » ، وتقرر فى ذلك المؤتمر إصدر نشرة دورية تكون رابطة الأتصال بين الجمعية الرئيسية وبين فروعها الأخرى فى برلين برياسة أبراهام Abrahaim ، وفى زيوريخ برياسة يونج ، وفى نيويورك برياسة ألفرد أدلر Alfred Adler ، وبعد ذلك أصدر أدلر وشتيكل Stekel مجلة ثانية للتحليل النفسى فى فيينا.

ثم توالت بعد ذلك مؤتمرات جمعية التحليل النفسى ، وتكونت لها فروع فى معظم الأقطار الغربية ، وأخذت تعاليم التحليل النفسى فى الانتشار وبدأت تجلب إليها كثيراً من الأصدقاء والأتباع . لا من رجال الطب فقط ، بل من رجال العلوم والفنون المختلفة أيضاً .

تنبيه

«الموجز فى التحليل النفسى» من أواخر أعمال فرويد . فقد بدأه فى يوليه ١٩٣٨ ولكنه لم يمض فى كتابته إلى منتهاه فظل ناقصًا لم يتجاوز الجزء الثالث . وليس ثمة ما يشير إلى الطريق الذى اختطه فرويد لنفسه ولا إلى الإتجاه الذى اعتزم السير فيه فى بقية هذا الكتاب . وقد كان الجزء الأكبر من الفصل الثالث مكتوبًا بعبارات مقتضبة مما اضطر اللجنة المشرفة على إخراج «الطبعة النهائية» من أعمال فرويد إلى إعادة كتابتها ثانية بما يتمشى وروح الكتاب . وقد اقتبس عنوان الجزء الأول وهو «طبيعة الحياة النفسية» من نسخة متأخرة من نفس المخطوط (أكتوبر ١٩٣٨) بعنوان «بعض الدروس الأولية فى التحليل النفسى» Some Elementary Lessons in Psycho-analysis

ونشر «الموجز فى التحليل النفسى» أول ما نشر فى المجلة الدولية للتحليل النفسى وإيماجو (International Zeitschrift for Psychoanalyse u. Imago) الجزء الخامس والعشرين ، ١٩٤٠ ، العدد الأول . ثم نشر فى الطبعة النهائية لأعمال فرويد ، الجزء السابع.

عشر (Gesammelte Werke, Band XVII) لندن ١٩٤٦ ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذه الترجمة .

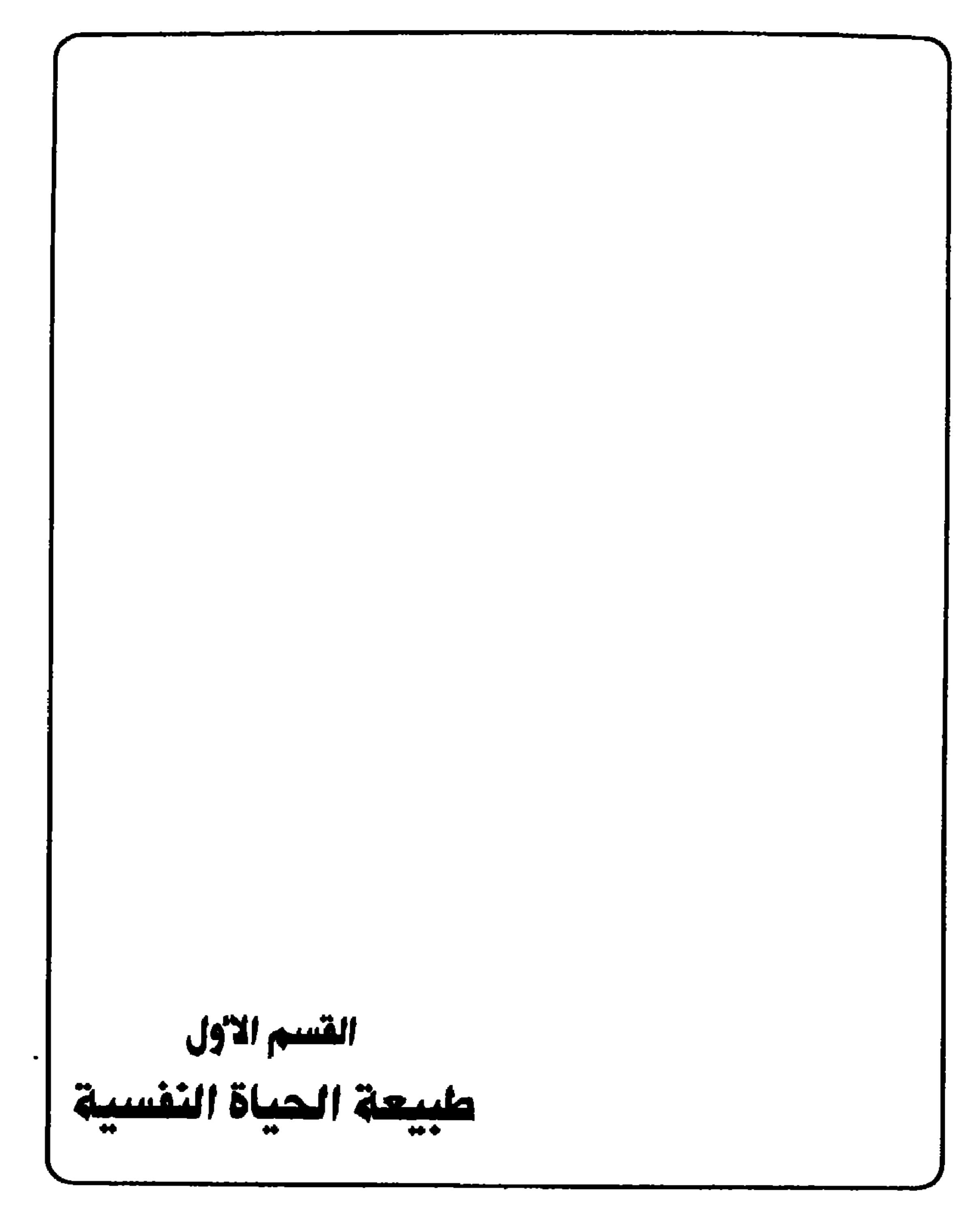
ويجد القارىء فى نهاية النص المترجم ثبتًا بالمصطلحات الواردة فيه مع مقابلاتها فى الألمانية والإنجليزية والفرنسية وشرح مطول لمعنى كل منها كما ورد فى كتابات فرويد المختلفة .

المترجمان

ملاحظات تمهيدية

الغـاية من هذا المـؤلف المـوجز جـمع نظريات التـحليل النفـسى وعرضها عـرضًا تقريريًا فى أدق عبارة وأبلغها تركـيزًا . ولا نبغى بذلك كسب الثقة ولا بلوغ الإقناع .

إن تعاليم التحليل النفسى تقـوم على عدد لا يحصى من المشاهدات والتجارب . فمن لم يـختبر هذه التجارب وتلك المشـاهدات فى نفسه أو فى الآخرين فلن يتسنى له أن يصل إلى حكم نزيه بشـأن التحليل النفسى .



القسم الأول

طبيعة الحياة النفسية

الفصل الأول
الجهاز النفسى

يضع التحليل النفسى مسلمة أساسيـة على الفكر الفلسفى مناقشتها ، وإن كان تبريرها يقع فى نتائجـها . فإن ما نسميه نفسنا (الحـياة النفسية) معروف لدينا على نحـوين : الأول عضوها الجسمى ومسرحـها ذاتهما ، أى المخ (الجهـار العصبى) ، والثـانى أفعالـنا الشعورية وهى مـعطيات مباشرة لا يمكن لوصف أيًا ما كان أن يزيدها قربًا منا . وكل ما يقع بين هذين الطرفين مجهول لنا . وليس ثمة علاقة مباشرة بينهما على ما نعلم . وإن كان ثمة عـلاقة فهى لا تزودنا إلا بتعـيين دقيق لمراكـز العمليات الشعورية ولكنها لن تعيننا فى شىء على فهمها .

ويتصل فـرضانا بهاتين النهـايتين أو البدايتـين لمعرفـتنا . الفرض الأول خاص بتحديد مناطق العمليات النفسية[1] . فنحن نفترض أن الحياة النفسـية وظيـفة لجهـاز نصف امتداده المكانى وتـألفه من أقسـام عدة ،

(١) الفـرض الثـانى خـاص باللاشـعـور ولا يعـرض له فـرويد إلا فى الفـصل الرابع . المترجمان.

ونتصوره بهذه المثابة شبيهًا بالمنظار المقرب أو بالمجهر أو ما إلى ذلك . ويعتبر تتبع هذا التصور إلى غايته تجديدًا علميًا ، رغم ما حاوله البعض من قبل للاقتراب من هذا التصور[1] .

وقد حصلنا على ما نعرفه عن هذا الجهاز النفسى من دراسة التطور الفردى للوجود الإنسانى ، وقد أطلقنا على أقدم هذه المناطق (أو المنظمات) النفسية اسم الهو ، ومضمونه كل ما هو موروث ، كل ما يظهر عند الميلاد ، كل ما هو مثبت فى الجبلة . لذا فهو يتألف أولاً وقبل كل شىء من الميول الغررية التى تصدر عن التنظيم الجسمى وتجد ههنا أول تعبير نفسى عن ذاتها فى صور نجهلها .

وبتأثير العالم الخارجى الواقعى المحيط بنا ، يطرأ على جزء من الهو تغيير خاص . فما كان فى الأصل طبقة لحائية مزودة بأعضاء لتلقى المنبهات وبأجهزة للوقاية من الإثارة ، ينشأ عنه تنظيم خاص يتوسط الهو والعالم الخارجى . وهذا القسم من حياتنا النفسية نسميه الأنا .

الخصائص الرئيسية للأنا : يسيطر الأنا على الحركات الإرادية ، نتيجة للعلاقة السابقة التكوين بين الإدراك الحسى والفعل العضلى ، كما يقوم بمهمة حفظ الذات . وهو يؤدى هذه المهمة بأن يتعلم معالجة

---

(١) الإشارة هنا إلى الفيلسوف وعالم النفس الألمانى فشنر (١٨٠١-١٨٨٧) المترجمان .
راجع «تفسير الأحلام» لفرويد ، ص ٢٧ وما يليها . ترجمة مصطفى صفوان . دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

المثيــرات الخارجية ، فـيدخر خبـرات تتعلق بها (فى الذاكـرة) ويتفادى المثـيرات المفـرطة فى القوة (بالهرب) ، ويسـتقبل المثـيرات المعـتدلة (بالتكيف) . وهو يتعلم أخيراً تعديل العــالم الخارجى تعديلاً يعود عليه بالنفع (النشــاط) . ففـى الداخل - تجاه الهــو - يكتــسب السيــادة على مطالب الدوافع الغريزية ، بأن يقرر ما إذا كان يجب السماح لها بالإشباع أو إرجاء هذا الإشباع لأحيان وظروف مـواتية فى العالم الخارجى أو قمع تنبيهــاتها أصلاً . وهو فى أفعاله خــاضع لاعتبار التــوترات التى تحدثها المنبهات القائمة فيه الواردة عليه فيستشعر ارتفاعها ألمًا وإنخفاضها لذة . بيد أن من المحتمل أن ما يستشعره لذة أو ألما ليس الدرجة المطلقة لهذه التوترات بـل هو شيء مرده إلى إيقاع تـغيرها . والأنا يسـعى وراء اللذة ويتجنب الألم . والزيادة المترقبة أو المتوقعة فى الألم يستجاب لها بنذير القلق ، والمناسبة التى تحـدث فيها ، سواء كانت تتـهدده من خارج أو من داخل ، تسمى خطراً . وبين الحين والحين يفـقد الأنا صلته بالعالم الخارجى ويعود إلى حالـة النوم، حــيث يحدث فى تنظيمه تغيرات بعيدة المــدى . ويمكن أن نسـتنتج من حــالة النوم أن هذا التنظيم مــا هو إلا توزيع معين للطاقة النفسية .

وكراسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التى يـعيش فيها الإنسان الناشيء معـتمداً على والديه ، تتكون فى الأنــا منظمة خاصة يـمتد فيــها تأثير الوالدين هذا ويطلق عليها اسم **الأنا الأعلى** . وبقدر ما ينفصل هذا الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضــه ، فهو يكون قوة ثالثـة ينبغى على الأنا أن يعمل لها حسابها .

ومن ثمة يكون الأنا مصيبًا في فعله إذا أشبع مطالب الهو والأنا الأعلى والواقع فى نفس الآن . فتمكن من التوفيق بين مقتضياتها المتباينة. ويمكن - بلا استثناء - تفهم تفاصيل العلاقة بين الأنا والأنا الأعلى بالرجوع إلى علاقة الطفل بوالديه . ولا يقتصر تأثير الوالدين - بطبيعة الحال - على طبيعة الوالدين فحسب ، بل إن من خلالهما ليظهر التأثير المتأصل للتقاليد العائلية والعنصرية والقومية ، كما تدخل فيه مطالب البيئة الاجتماعية التى يمثلانها . وعلى النحو نفسه يتلقى الأنا الأعلى للطفل - إبان تطوره الفردى - إضافات جديدة من خلفاء الأبوين ومن يقوم مقامهما فى الأطوار اللاحقة كالمعلمين والشخصيات البارزة فى الحياة العامة والمثل العليا الموقَّرة فى المجتمع . ومن البين أن الهو والأنا الأعلى - على تباينهما الأساسى - يتفقان فى أنهما يمثلان الماضى . فالهو يمثل آثار الوراثة ويمثل الأنا الأعلى - فى جوهره - ما أخذ عن الآخرين . أما الأنا فمحدد - فى المحل الأول - بما يخبره بالذات أى الأحداث العرضية الفعلية . وهذا التخطيط العام للجهاز النفسى يمكن أن يصدق بالمثل على الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان من الناحية النفسية . ويجب أن نسلم بوجود الأنا الأعلى حيثما وجدت فترة طويلة من الاعتماد الطفلى ، كما هو الحال عند الإنسان . أما التمييز بين الأنا والهو فأمر لابد من التسليم به .

ولم يتناول بعد علم نفس الحيوان المشكلة التى عرضناها ههنا .

الفصل الثانى

نظرية الغرائز

تعبر قوة الهو عن الغاية الحقيقية لحياة الكائن العضوى . وتنحصر هذه الغاية فى إشباع حاجاته الفطرية . ولا يمكن وصف الهو بأنه يستهدف المحافظة على الحياة ولا اتقاء الأخطار باستخدام القلق . فتلك مهمة الأنا ، الذى يجب عليه أيضًا أن يكتشف أنسب الوسائل وأقلها خطرًا للحصول على الإشباع ، مع اعتبار العالم الخارجى ، وقد يكون للأنا الأعلى مطالب جديدة ، ولكن وظيفته الرئيسية تظل تقييد الإشباعات .

والقوة التى نفترض وجودها وراء توترات حاجات الهو نسميها الغرائز ، وهى تمثل المطالب الجسدية لدى الحياة النفسية . ومع أنها هى العلة الأخيرة لكل نشاط فهى محافظة بالطبع ؛ وكل حالة يبلغها الكائن تولد حنينًا إلى استعادة حالة تركها لتوه . ويمكن أن نميز بين عدد غير محدود من الغرائز ، بل إن هذا هو السائد فعلاً . أما بالنسبة لنا فيهمنا إمكان إرجاع هذه الغرائز العديدة إلى عدد قليل معين من

الغرائز الأساسية. وقد علمتنا التجربة أن من الممكن للغرائز تغيير هدفها (عن طـريق الإزاحة) وأنها يستطيع أن يحل بعضها محل البعـض ، بأن تنتقل طاقـة غريزة ما إلـى أخرى والعملية الأخيرة لا تزال غير مـفهومة تمـامًا. وبعـد تردد وتذبذب طويلين استـقـر رأينا على افـتراض وجـود غريزتين أساسيتين فقط . هما الإروس وغريزة التدمير (ويقع فى نطاق الإروس التعـارض بين غريزة حفظ الذات وغريزة حـفظ النوع ، وكذلك غـريزة حب الذات وغـريزة حب المـوضـوع) . وهدف الإروس إنشـاء وحدات جديـدة لا تفتأ تزيد حجـمًا ، والاحتفاظ بهـا على هذا النحو ، ومن ثمة فهدفها الربط . أمـا هدف الثانية فهو على الضد : حل الروابط وبالتالى تدمـير الأشياء . ويمكن أن نتـصور أن الغاية القصـوى لغريزة التدمـير هى رد الحى إلى الحالة اللاعـضوية . ولذا نسميـها أيضًا غريزة الموت . وإذا افترضنا أن الحى متأخـر فى الظهور عن غير الحى ، وأنه خـرج منه لكان جليًا أن غـريزة الموت تطابق المـبـدأ المذكـور وهو أن الغريزة تنزع إلى الـعود إلى حالة سـابقة . أما بالنسـبة إلى الإروس (أو غريزة الحب) فلا يمكننا تطبيق مثل هذا القول . وإلا كان لزامًا علينا أن نسلم بأن الجوهر الحى كان وحدة يومًا مـا - ثم انقسم إلى أجزاء ويميل الآن إلى معـاودة الاتحاد[1]. وفى الوظائف الحيـوية تتعـارض الغريزتان

---

(١) تخيل الشعراء شيئًا شبيهًا بهذا ، ولكننا لا نعرف ما يماثله فى التاريخ الواقعى للجوهر الحى .

الأساسيتان أو تتحدان: فعملية الغذاء تدمير للموضوع الغاية النهائية منه إدماجه ، والعملية الجنسية عدوان يرمى إلى أوثق اتحاد . هذا الانسجام والتباين بين الغريزتين الأساسيتين يضفيان على مظاهر الحياة تنوعها . والتناظر بين هاتين الغريزتين الأساسيتين يتجاوز نطاق الكائنات الحية إلى ميدان الكائنات غير الحية ، حيث القوتان المتعارضتان المهيمنتان ، قوتا التجاذب والتنافر[١] .

وللتفاوت فى نسبة امتزاج الغرائز نتائج بينة ظاهرة - فزيادة العدوان الجنسى زيادة مفرطة تحول المحب إلى قاتل من أجل اللذة الجنسية ، كما أن الانخفاض الشديد فى العامل العدوانى يجعل منه خجولاً أو عنينا .

ويجب أن نستبعد حصر أى من هاتين الغريزتين فى منطقة واحدة من النفس ؛ فلابد من وجودهما فى كل مكان . ويمكننا أن نصور الموقف فى بادىء الأمر بأن نفترض أن كل الطاقة المتيسرة للإروس - وهى التى سنسميها من الآن بالليبيدو - موجودة فى الأنا والهو قبل تفاضلهما ، وأنها تعمل على معادلة الحوافز التدميرية المصاحبة لها (ويعوزنا اصطلاح مماثل «لليبيدو» للدلالة على طاقة غريزة التدمير) . وبعد ذلك يسهل علينا نسبيًا أن نتتبع ما يصير إليه الليبيدو ، وهو أمر أشد مشقة فى حالة غريزة التدمير .

(١) هذا التصور للقوى الأساسية أو الغرائز الذى لا يزال يقاومه المحللون على أنحاء عدة كان مألوفًا من قبل لدى أنبادوقليس فيلسوف أغريغنتا .

وتظل هذه الغريزة ساكنة مادامت تعمل فى الداخل بوصفها غريزة الموت ، ولا تظهر لنا إلا بعد أن تتحول إلى الخارج بوصفها غريزة التدمير . ويبدو أن حدوث هذا ضرورى لحفظ الفرد ويساعد الجهاز العضلي فى هذا التحول . ويتكون الأنا الأعلى تثبت كميات كبيرة من الغريزة العدوانية داخل الأنا وتعمل ضد الذات على نحو تدميرى . وهذا أحد الأخطار الصحية التى يتقبلها الإنسان فى سبيل النمو الحضارى . وكبح العدوان ضار بوجه عام ، فهو يعمل على الإسقام (الإهلاك) . والشخص فى سورة الغضب يبين كيف يتم الانتقال من العدوان المقيد إلى تدمير الذات ، وذلك بتحويل عدوانه على ذاته ، فهو يجذب شعره أو يلطم وجهه بقبضتيه ، وهذه معاملة كان يود لو وجهها إلى شخص غيره. وعلى أية حال يظل قسم من العدوان الموجه إلى الذات فى الداخل حتى ينجح أخيراً فى أن يفضى بالفرد إلى الموت . وربما كان ذلك أولاً حين تستنفد طاقته الليبيدية ، أو تثبت بصورة ضارة . ومن ثمة يمكن أن نفترض على وجه العموم أن الفرد يموت بسبب صراعاته الداخلية، فى حين أن النوع يموت من جراء كفاحه الفاشل ضد العالم الخارجى . عندما تعتريه تغيرات لا يمكن معالجتها بوسائل التكيف التى اكتسبها .

وعسير أن نقول شيئًا عن سلوك الطاقة الليبيدية فى الهو وفى الأنا الأعلى . وكل ما نعرفه عنها يتعلق بالأنا ، حيث تدخر فى البداية كل الكمية المتاحة من الطاقة الليبيدية . نسمى هذه الحالة بالنرجسية الأولية

المطلقة . ويبقى هذا الوضع حتى يبـدأ الأنا فى شحن تصورات الموضوع باللبيبـدو ، فيتحول الليبـيدو النرجسى إلى الليبيـدو الموضوعى . ويظل الأنا طوال الحياة المستودع الكبـير الذى ترسل منه الشحنات الليبيدية إلى الموضوعات ، وكذلك تسحب إليه ثانية ، كما يصنع جسم بروتوبلازمى بأقدامـه الكاذبة . ولا يحدث إلا فى حالة الإنغـماس الكلى فى الحب أن تنتقل الكمية الرئيسية من الليبيدو إلى الموضوع ، وأن يقوم الموضوع إلى حد ما مقـام الأنا . ولليبيدو طابع مهم للحيـاة هو تنقله أو السهولة التى ينتقل بهـا من موضـوع إلى آخر . وبالعكس يحـدث أحيانًا أن يتـشبث الليبيدو فى موضوعات معينة تثبيتًا غالبًا ما يبقى طوال الحياة .

ولا ريب فى أن لليبيـدو مصادر جسمـية ، وأنه يتدفق إلى الأنا من أعضاء وأجزاء مختلفـة من الجسم . وهو ما يتجلى أوضح تجلٍ فى حالة ذلك القسم من الليبيـدو الذى يعرف بالتهيج الجنسى ، وذلك بالنظر إلى غايته الغريزية . ونحن نطلق على أبرز أجزاء الجسم التى ينبعث منها هذا الليبيدو اسم المناطق الشهوية وإن كان الجسم كله فى الواقع منطقة شهوية مماثلة . وأفضل ما نعرفه عن الإيروس ومن ثمـة عن علاماته مستمد من دراسة الوظيفـة الجنسية ، وهى مطابقة للإروس فى العـرف الشعبى ، بل وفى نظريتنا كذلك . وقد تمكنا من تكوين صورة عن السبيل الذى يطرقه الحافز الجنسى ، الذى قـيض له أن يؤثر فى حياتنا تأثيراً حاسـمًا . فقد نما هذا الحافز نمواً تدريجيًا من إضافات متتالية لعدد من الغرائز الجزئية التى تمثل مناطق شهوية معينة .

الفصل الثالث

نمو الوظيفة الجنسية

يدعى التصور الشائع أن الحياة الجنسية لدى الإنسان هى فى جوهرها الميل إلى اتصال الأعضاء التناسلية لشخص ما بما يقابلها عند شخص من الجنس الآخر . ويعتبر تقبيل هذا الجسم الغريب ولمسه والنظر إليه ظواهر ثانوية وأفعالاً تمهيدية . ولابد لهذا الميل أن يظهر مع البلوغ ، ومن ثمة فى عهد النضوج الجنسى ، وأنه يستهدف الإنسال . على أن ثمة حقائق معروفة لا تدخل فى إطار هذا التصور :

١ - فمما يلفت النظر ، أن هناك أشخاصًا لا يستهويهم إلا أفراد من جنسهم ، والأعضاء التناسلية لهؤلاء .

٢ - ويلفت النظر أيضًا أن هناك أشخاصًا تتسم رغباتهم بالطابع الجنسى، ولكنهم فى الوقت عينه لا يهتمون بالأعضاء التناسلية ولا باستخدامها الطبيعى . وأمثال هؤلاء الأشخاص يسمون بالمنحرفين .

٣ - وأخيراً . فمن الغريب أن الأطفال الذين يعتبرون لهذا السبب منحلين ، يبدون اهتماماً مبكراً جداً بأعضائهم التناسلية وتظهر عليهم أمارات التهيج بها .

وغني عن البيان أن التحليل النفسى أثار الاستغراب والاستنكار حين عارض كل الآراء السائدة عن الجنسية مستنداً - فيما استند - إلى هذه الوقائع الثلاث المغفلة وفيما يلى نتائجه الرئيسية :

(أ) الحياة الجنسية لا تبدأ أولاً عند البلوغ ، وإنما تتبدى عقب الميلاد بمظاهر واضحة .

(ب) من الضرورى أن نميّز تمييزاً قاطعًا بين مفهومى «الجنسى» و«التناسلى» . فالأول هو المفهوم الأعم ويضم أنواعًا عدة من النشاط لا شأن لها بالأعضاء التناسلية .

(جـ) تتضمن الحياة الجنسية وظيفة الحصول على اللذة من مناطق جسمية . وهى وظيفة ترتب - فيما بعد - لخدمة الإنسال ، وغالبًا ما لا تتطابق هاتان الوظيفتان تمام التطابق .

وبوجه أعظم اهتمام بالطبع إلى أولى القضايا وهى أغربها جميعًا . فنشاهد فى عهد الطفولة المبكر علامات للنشاط الجنسى لا يمكن أن ينكر عليها صفة الجنسية إلا الرأى المغرض القديم ، وهى ترتبط بالظواهر النفسية التى نجدها فيما بعد ، فى حياة الحب عند البالغين ، كالتعلق

بموضوعات معينة ، والغيرة ، وما إلى ذلك ، ويتبين فوق ذلك أن هذه الظواهر التى تنبعث فى طور الطفل المبكر تكون جزءًا من عملية تطور منتظمة ، وأنها تمر بنمو مطرد حتى تصل الذروة فى نهاية العام الخامس تقريبًا . تليها فترة سكون . وإبان ذلك يقف التقدم ويُنسى الكثير وينكص . وفى نهاية هذه الفترة التى نسميها مرحلة الكمون - تستأنف الحياة الجنسية عند البلوغ - أو أنها تزدهر ثانية إن صح التعبير . وهذا يؤدى بنا إلى حقيقة هامة - وهى أن الحياة الجنسية ترد على دورتين ، وهو ما لا تجده إلا عند الإنسان . ولا شك أن له أثرًا بالغ الأهمية فى تكوينه[1] . ومما له دلالة أن أحداث هذه الفترة الجنسية المبكرة - ما عدا النزر اليسير منها - تخضع لفقدان الذاكرة الطفلى ، وأن حدوسنا الخاصة بأصول الأعصبة وطريقتنا فى العلاج التحليلى مرتبطة بهذه التصورات . وتتبع التطور فى هذه المرحلة المبكرة . أمدنا أيضًا بشواهد تؤيد نتائجنا الأخرى .

وأول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبتها الليبيدية على النفس هى الفم منذ الميلاد . وتتأثر النفس بوظيفته الليبيدية . ففى

---

(١) هناك فرض يذهب إلى أن الإنسان انحدر عن حيوان ثديى كان يبلغ النضوج الجسمى فى سن الخامسة ، ثم طرأ على النوع من الأحداث الكبرى الخارجية المراد نموه وقطع التطور الجنسى ويمكن أن يكون لهذا علاقة أيضًا ببعض الفروق الأخرى بين الحياة الجنسية عند الإنسان والحياة الجنسية عند بعض الحيوانات ، كزوال الموسمة الليبيدية ، وتحول دور الحيض فى العلاقة الجنسية .

بادىء الأمر ، يتركز النشاط النفسى كله حول إشباع حاجة هذه المنطقة . ولا شك فى أن هذه المنطقة تقوم أولاً وقبل كل شىء بتحقيق حفظ الذات بواسطة التغذية . ولكن يجب ألا نخلط بين الفسيولوجى وعلم النفس . فإلحاح الطفل فى المص وتشبثه به فى مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع ، على الرغم من أنها حاجة تنبعث عن تناول الغذاء وتتأثر به ، إلا أنها تسعى إلى الحصول على لذة مستقلة عن التغذية ، وبالتالى يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية .

وفى خلال هذه المرحلة الفمية ، تظهر الحوافز السادية فى فترات متقطعة بظهور الأسنان . ويزداد مقدار هذه الحوافز زيادة عظيمة إبان المرحلة الثانية التى نسميها «المرحلة السادية الشرجية» ، لأن الإشباع فيها يطلب فى العدوان وفى وظيفة الإخراج . ونبرر هنا إدماج الحوافز العدوانية فى الليبيدو بافتراض أن السادية مزيج غريزى لحوافز ليبيدية خالصة مع حوافز تدميرية خالصة ، وهو مزيج لا يكف أبداً[1] .

المرحلة الثالثة نسميها «المرحلة القضيبية» . وهى على نحو ما بشير بالشكل النهائى للحياة الجنسية ، بل وتشبهها شبهاً عظيماً . وجدير بنا

(١) يصح هنا أن نتساءل عما إذا كان إشباع الحوافز الغريزية التدميرية الخالصة لاذا ، وعما إذا كان يمكن حدوث تدمير خالص خلو من أى مضمون ليبيدى . ويبدو أن إشباع ما يتبقى فى الأنا من غريزة الموت لا يحدث مشاعر لاذة ، وإن كانت المازوشية تمثل مزيجاً شبيهاً بالسادية .

آن نلاحظ أن ما يلعب دوراً هامًا فى هذه المرحلة ليس هو الأعضاء التناسلية عند الجنسين ، بل هو العضو التناسلى الذكر فحسب (القضيب). أما الأعضاء التناسلية للأنثى فتظل مجهولة زمنًا طويلاً . فالطفل فى محاولته فهم العمليات الجنسية ، يأخذ بالنظرية المخرجية الجديرة بالاعتبار(*) وهى نظرية لها تبرير تكوينى[1] .

ومع المرحلة القضيبية وفى خلالها ، تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها . ومن الآن فصاعدًا تختلف مصائر الصبيان والبنات . فقد بدأ الفريقان ونشاطهما الذهنى موقوف على البحث الجنسى ، وكلاهما اشتركا فى افتراض وجود القضيب عند الجميع. ولكن طرق الجنسين تفترق الآن ، فيدخل الصبى الطور الأوديبى، ويأخذ يعبث بقضيبه عبثًا تصحبه أخيلة أنه يزاول به نوعًا من النشاط الجنسى ذا صلة بأمه ، إلى أن يعانى أعظم صدمة فى حياته ، تحت تأثير تلاقى التهديد بالخصاء برؤيته المرأة عاطلة عن القضيب ، وبذلك يدخل طور الكمون بكل نتائجه . أما البنت ، فبعد سعيها سعيًا فاشلاً فى منافسة الصبية ، تدرك خلوها عن القضيب ، أو على الأصح

---

(١) يرى البعض أن هناك تهيجات فرجية فى مرحلة مبكرة . ولكن الأرجح أنها تهيجات فى البظر أى فى عضو شبيه بالقضيب ، بحيث لا يمكن أن تمنعنا هذه الحقيقة عن وصف المرحلة بأنها قضيبية .

(*) يعتقد الطفل أن أعضاء الأنثى التناسلية لا تختلف عن أعضاء الذكر وأن الجماع والولادة يتمان جميعًا عن طريق الشرج - المترجمان .

تفاهــة بظرها، ممــا يخلف آثاراً دائمة فى نمــو الخلق ؛ ويغلب أن تؤدى هذه الخيبة الأولى فى المنافسة إلى العزوف التام عن الحياة الجنسية .

ونخطىء إذا اعتقدنا أن هذه المراحل الثلاث تتمــيز عن بعضها تميزًا دقيقًا ، فقد تظهر واحدة منها إلى جانب الأخرى ، أو تتداخل معها ، أو تتلاقى جميعا .

وفى الأطوار الأولى ، يعمل كل حافز غريزى جزئى على طلب اللذة مستــقلاً عن سائر الحوافز . أمــا فى المرحلة القضيبيــة فنجد بوادر تنظيم تخضع فــيه ســائر الحوافز لسـيطرة أعضــاء التناسل ، ويندمج كثـير من ضروب نشدان اللذة فى الوظيفة الجنسية .

والتنظيم الكامل لا يدرك إلا عند البلوغ ، فى مرحلة رابعة تناسلية وهنا يقوم نظام نجد فيه :

(١) أن كثيراً من الشحنات الليبيدية الأولى تُستبّقى .

(٢) وأن شحــنات أخرى تندمج فى الوظيــفة الجنــسية بــوصفــها أفــعالاً تمهيدية أو ثانوية يحدث إشباعها ما يسمى باللذه التمهيدية .

(٣) وميــول أخرى تستبــعد من هذا التنظيم ، فإمــا أن تقمع (أو تكبت) بوجــه عام ، أو أن تســتــخدم داخل الأنا فى طــريق آخر ، فــتكوّن سمات خلقية ، أو تخضع للتسامى بتعطل أهدافها .

ولكن هذه العمليــة لا تتحــقق دائمًا على الوجه الأكمل . فــضروب الكف فى تطورها تكشف عن نفســها فى الاضطرابات المختلفــة فى الحياة

الجنسية . فيظل الليبيدو إذ ذاك متشبثًا بحالات المراحل الأولى . وهنا يحدث اضطراب فى الهدف الجنسى السوى مميز للإنحراف . ومثل هذا الكف فى النمو الجنسى نجده مثلاً فى الجنسية المثلية - إذا كانت سافرة . ويبين التحليل أن التعلق بشخص من نفس الجنس كان موجوداً فى وقت ما فى كل الحالات ، وفى معظم الحالات ظلت هذه الجنسية المثلية فى حالة كمون . ومما يزيد الأمر تعقيدًا بوجه عام أن العمليات الضرورية للوصول إلى حالة سوية لا تتحقق كلها ، ولا تنعدم بالمرة ؛ بل هى تتحقق تحققًا جزئيًا بحيث تتوقف الصورة النهائية على هذه العلاقات الكمية . وهكذا فإن التنظيم التناسلى يتحقق ، ولكنه يضعف نتيجة لوجود آجزاء من الليبيدو لم تتوحد وظلت مثبتة على موضوعات وأهداف ثابتة سابقة على الطور التناسلى . ويبدو مثل هذا الضعف فى ميل الليبيدو إلى العودة إلى سابق أحواله قبل التناسلية (النكوص) فى حالات عدم الإشباع أو الصعوبات الحقيقية .

وقد أمكننا أثناء دراستنا للوظائف الجنسية أن نصل إلى اقتناع أول مؤقت. أو على الأصح، إلى افتراض يتصل بمسألتين ستتبين فيما بعد أهميتهما بالنسبة إلى موضوعنا كله. أولاً : - أن الظواهر السوية والشاذة التى نلاحظها (أعنى وصف ظواهر الموضوع) ، تستلزم أن نصفها من زاوية الديناميات والكم (فى حالتنا هذه من زاوية التوزيع الكمى للطاقة الليبيدية) . ثانيًا : أن أصول الاضطرابات التى ندرسها يجب البحث عنها فى تاريخ تطور الفرد ، أعنى فى العهد الأول من حياته .

الفصل الرابع
الكيفيات النفسية

وصفنا بنيان الجهاز النفسى والطاقات أو القوى الفعالة فيه ، وتتبعنا فى مثال مميز ملفت كيف تنتظم تلك الطاقات ولا سيما الليبيدو فى وظيفة فسيولوجية مرتبة لغاية حفظ النوع . ولم يكن فى هذا كله ما يوضح الطابع النوعى لما هو نفسى ، إذا استثنينا بطبيعة الحال هذه الحقيقة الواضحة : وهى أن الطاقات إنما هى أساس الوظائف التى نسميها حياتنا النفسية . ولننظر الآن فى خاصة تنفرد بها الظاهرة النفسية ويراها العرف السائد مطابقة لها .

إن بداية هذا البحث واقعة لا مثيل لها تأبى كل توضيح ووصف وهى الشعور . وهكذا فإذا تحدث المرء عن الشعور ، عرف المقصود بذلك مباشرة ، بخبرة شخصية إلى أبعد مدى[1] . ويقنع الكثيرون من بين المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين به ، بافتراض أن الشعور هو وحده

---

(١) يعتقد اتجاه متطرف مثل السلوكية الأمريكية المولد أن من الممكن إقامة علم النفس يتجاهل هذه الواقعة الأساسية !

النفسى" ومن ثمة لا يبقى لعلم النفس من عمل إلاّ التمييز داخل نطاق الظواهر النفسية بين الإدراكات الحسية ، والمشاعر الوجدانية ، والعمليات الفكرية ، والأفعال الإرادية . ومع ذلك فإن من المتفق عليه أن هذه العمليات الشعورية ليست سلاسل متصلة متماسكة ، بحيث لا نرى مفراً من افتراض وجود عمليات مادية أو جسمية تصاحب العمليات النفسية ، ولابد أن نسلم بأن هذه العمليات الجسمية أكثر تماسكًا من السلاسل النفسية ، من حيث إن بعضها يقابله عمليات شعورية موازية له أما البعض الآخر فلا يقابله شيء . فطبيعى إذًا فى علم النفس أن نبرز هذه العمليات الجسمية . وأن نعتبرها الجوهر الحقيقى للظاهرة النفسية ، وأن نحاول الوصول إلى تقدير جديد للعمليات الشعورية . إلا أن غالبية الفلاسفة وكثيرين غيرهم يناهضون هذا الرأى ويصرحون بأن اللاشعور النفسى خُلْف .

ولكن التحليل النفسى مضطر إلى عمل هذا بالذات ، وهذا هو فرضه الأساسى الثانى . فالتحليل النفسى يصرح بأن ما زعمناه من عمليات جسمية مصاحبة ، ليست إلا الظواهر النفسية فى جوهرها ، ويغفل مؤقتًا الكيفية الشعورية وهو فى ذلك ليس وحده . فقد عبر كثير من المفكرين كتيودور ليبس مثلاً – عن نفس الرأى فى ألفاظ مماثلة . وقد اشتدت الحاجة إلى إدخال مفهوم اللاشعور فى التفكير السيكولوجى ، بعدما بدا من قصور التصور السائد عن طبيعة الظاهرة النفسية ، ولكن هذا

الإتجاه كان عديم التأثير فى العلم ، من جراء ما اكتنفه من غموض وعدم تحديد.

وقد يبدو أن هذا الخلاف بين التحليل النفسى والفلسفة ليس إلا مسألة تافهة تنصب على التعريف : إن كان يجب إطلاق اسم النفسىّ على إحدى هذه السلاسل أو السلسلة الأخرى . والواقع أن هذه الخطوة على أعظم جانب من الخطورة . فالفريق الذى لا يعنى إلا بدراسة الشعور لا يستطيع مطلقًا أن يتعدى هذه السلسلة المتقطعة من الظواهر التى يبدو بوضوح أنها تعتمد على ظواهر جسمية مغايرة ، فى حين أن الرأى الآخر الذى يذهب إلى أن الظاهرة النفسية هى فى ذاتها لا شعورية يتيح لعلم النفس أن يتبوأ مكانة بوصفه علمًا طبيعيًا بين العلوم الطبيعية الأخرى . فالعمليات التى يعنى بها ليست - فى ذاتها - مدركة ، مثلها فى ذلك مثل العمليات التى تبحث فيها العلوم الأخرى ، كالعمليات الكيميائية أو الطبيعية ؛ ولكن من الممكن تعيين القوانين التى تسيطر على هذه العمليات، وتتبع علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها علي بعض على نطاق واسع . وهكذا يمكن أن نصل إلى فهم خاص بمجال الظواهر الطبيعية . ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بوضع فروض جديدة ، وخلق مفهومات مستحدثة . ولا ينبغى أن نغض من قدر هذه الفروض والمفاهيم فتعتبرها شواهد على تخبطنا ، بل ينبغى على الضد أن نقدرها حق قدرها وأن نعتبرها منمية للعلم ، مزيدة فى ثرائه . بل ويجدر بنا أن ننظر إليها

بوصفها تفسيـرات تقريبية مساوية فى القيمة لمثيـلاتها فى العلوم الطبيعية الأخرى . ونحن ننتظر أن تعدل هذه التفسيرات التقريبية وأن تصحح وأن يزيد تحديدها دقـة ، بقدر ما تزيد تجاربنا وتمـحص . فليس من الغرابة فى شىء إذن أن تظل مفـاهيم العلم الجديد ومبـادئه الأساسيـة (الغريزة والطاقة العصبية إلخ) على هذا القدر من عدم التحديد . كما ظلت مفاهيم العلوم القديمة (القوة ، والكتلة ، والجذب) .

تقوم العلوم جـميعًا على مشـاهدات وتجارب نصل إليهـا من خلال جهازنا النفسى . ولكن لما كان موضوع علمنا هو هذا الجهاز بالذات فإن الممـاثلة تنتهى هنا . فنحن نبـاشر مشـاهداتنا من خلال جـهاز الإدراك الحسى ذاته بمـساعدة الفـجوات فى الظواهر النفسـية مباشـرة بأن نملأها باستدلالات وجيهة ونترجمـها إلى مادة شعورية . وبهذه الطريقة نضيف إلى الظواهر النفسية اللاشعورية سلسلـة من العمليات الشعورية مكملة لها . ويقوم اليقين النسبى فى علمـنا النفسى على وجاهة هذه الاستدلالات . وسيجد كل من يتعمق فى هذا العمـل أن طرقنا العلاجية تصمد أمام كل نقد .

وفى هذا العمل تواجهنا ضـرورة التمييز بين أحـوال معينة هى التى نسميها بالكيفيات النفسية . ولا حاجة بنا إلى تحديد ما نعنيه بالشعور ، فهو نفـسه معنى الشعور لدى الـفلاسفة والعامـة . وكل ما عدا ذلك من الظواهر النفسيـة فهو عندنا لا شعورى . ولابد لنا بـعد ذلك من التسليم

بانقسام هذا اللاشعـور انقسامًا هامًا : فبعض العمليـات تغدو شعورية فى يسـر ، ثم لا تلبث أن تعود إلى سـيرتـها الأولى ، ولكنهـا قد تصـبح شعورية ثانيـة بلا عناء ، أو كما يقال - يمكن أن تستعـاد وأن تتذكر . وهذا ينبهنا إلى أن الشـعور عادة حـال سريع الزوال ، فما هو شـعورى يظل شعـوريًا لحظةً فحسب . وإذا كـانت إدراكاتنا الحسـية لا تؤيد هذا القول . فـإن التناقض ليس إلا ظاهريًا . ويمكن أن يفـسر بأن منبـهات الإدراك الحسى يمكن أن تدوم أمدًا ما ، بحـيث يتكرر إدراكنا الحسى لها طوال هذا الأمـد . ويمكن أن يتضح المـوقف بأكمله فى الإدراك الحـسى الشعورى ، لعملياتنا الفكريـة . صحيح أن هذه العمليات يمكن أن تدوم إلا أنها يمكن أيضًا أن تنتهى فى لمحـة عين ، ولذا يحسن بنا أن نسمى كل ظاهرة لا شعورية تنهج هذا النهج وتستطيع بسـهولة أن تستبدل الحالة الشعورية بالحالة اللاشعـورية بظاهرة يمكن أن تصبح شعورية أو بظاهرة قبلشعورية . وقد علمتنا التجربة أن كل العمليـات النفسية تقريبًا ، حتى ما كان منها بالغ التـعقيد يمكن أن تظل قبلشعـورية أحيانًا ، وإن كانت كلها - عادة - تجاهد للوصول إلى الشعور على حد قولنا .

وهناك عمليات ومواد نفسية أخرى لا يتـسنى لها هذا الانتقال اليسير إلى الحالة الشعورية بل يتعـين أن تستنتج ، وأن تكتشف ، وأن تترجم إلى صـيغـة شـعـورية بالطريقـة التى وصفنـاها . ولها نحـتـفظ باسم «اللاشعور» بالمعنى الدقيق ، وبذا نكون قد أضـفنا إلى العمليات النفسية

كيفيات ثلاثًا - فهى إما شـعورية أو قبلشعورية ، أو لا شعورية . وليس الفصل بين هذه الأصناف الثـلاثة من المضمونات مطلـقا ولا دائمًا . فما هو قبلشعورى يمكن أن يصبح شـعوريًا كما رأينا بدون تدخل من جانبنا . وما هو لا شعورى يمكن أن يصبح شـعوريًا كما رأينا بدون تدخل من جانبنا . وما هو لا شـعورى يمكن أن يصبح شعوريًا بفـضل جهودنا ، وإن كنا نحس أثناء هذا أن علينا أن نتغلب على مقـاومات غالبًا ما تكون بالغة العنف . وعندما نقوم بهذه المـحاولة على شخص آخر ، فعلينا ألا ننسى أن ملء الفـجوات المـوجودة فى إدراكـاته الحسـية ، أى التـأويل التركيبى الذى نقدمه إليه ، لا يعنى أننا قـد حولنا المضمون اللاشعورى المعين عنده إلى شىء شعورى بالنسبة إليه . كل ما فى الأمر أن المسألة لديه تأخذ شكلين: الشكل الأول هو التأويل الشعورى الذى نقدمه إليه . والشكل الثانى هو الحالة اللاشعوريـة الأصلية . وتنجح جهـودنا الدائبة عادة فى تحـويل هذه المادة اللاشعورية إلى مـادة شعورية بالنسبـة إليه ، بحـيث تنطبق الصيـغتـان إحداهمـا على الأخرى . ويتـفاوت بحـسب الحالات مـقدار المـجهـود الذى يتعـين علينا أن نبذله والذى نقـيس به المقاومة ضد التـحول إلى الشعور . فما يحدث مثـلاً بفضل ما نبذله من جهـد فى علاج تحـليلى ، يمكن أن يحدث تلقـائيًا أيضا . فقـد يمكن لمضـمون لا شـعورى عادة أن ينتـقل إلى ما قـبل الشعور ، ثـم يصبح شعوريًا وهو ما يحدث ، على نطاق واسع ، فى الحالات الذهانية . وهذا يؤدى إلى القول بأن الاحتـفاظ بقدر معين من المقاومـات الداخلية شرط لحالة السـواء . وفى حالة النوم تقل هـذه المقاومـات ويندفع المضـمون

اللاشعورى وبذلك يتـوفر شرط تكوّن الأحلام. وعلى الضد فـقد يصبح المضمون القبلشعورى- لحين ما- بعيد المنال ، منعزلاً نتيجة للمقاومات ، كمـا يحدث فى حـالات النسيان العـابر (الهفـوات) . أو قد ترد فكرة قبلشعـورية إرتداداً مؤقتًا إلى الحالة اللاشعورية وهو شـرط النكتة على ما يبدو ، وسنرى أن ارتداد المـضمونات (أو العـمليات) القبلشـعورية إلى الحـالة اللاشـعـورية على هذا النحـو ، يقـوم بدور كـبيـر فى إحـداث الاضطرابات العصابية .

وقد يبدو أن نظرية الكيـفيات الثلاث للظواهر النفسيـة كما عرضناها على هذا النحو المـبسط العام . هى بالأحـرى مصدر لغـموض وخلط لا نهاية له ، وليـست مما يعين على الوضـوح . ولكن علينا ألا ننسى أنها ليست نظرية بالمـعنى الدقيق ، بل تقرير أولى للوقـائع التى نشاهدها ، وأنهـا تحاول أن تظل قـريبة مـا أمكن من تلك الوقائع ولا تسـعى إلى تفسـيرها . أمـا ضروب التـعقـيد التى تكشف عنهـا فهى تظهـرنا على الصعوبات الخاصة التى علينا أن نتغـلب عليها فى بحثنا . ويحتمل أيضًا أن تزيدنا هذه النظرية علمًا إن تتبعنا علاقات الكيفيات النفسية بما أسميناه بالقطاعات أو «المنظمات» التى سلمنا بوجـودها فى الجهاز النفسى ، وإن كانت هذه العلاقات بدورها لا تتصف بالبساطة .

ويرتبط فعل الشعـور قبل كل شىء بالمدركات التى تتلقـاها أعضاء حسنا من العالم الخارجى . فهو إذن ، من الناحية الطوبوغرافية ، ظاهرة تحدث فى اللحـاء الخارجى للأنا . ولا شك أننا نتلقى أيضًا انطبـاعات

شعورية من داخل الجسم - هى المشـاعر الوجدانية التى تفوق الإدراكات الحسية الخـارجية خطراً بالنسبة إلى حياتـنا النفسية . أضف إلى هذا أن أعضاء الحس نفسها ترسل المشـاعر الوجدانية وآحاسيس الألم ، علاوة على الإدراكات الحسـيـة الخاصة بهـا . ولكن لما كـانت هذه المشـاعر الوجدانية كما تسمى تمييزاً لهـا عن الإدراكات الحسية الشعورية ، تنبعث أيضًا عن الأعضاء المـتطرفة ، ولما كنا نعتبر هذه الأعـضاء امتدادات أو مشتقات للحاء، أمكننا التمسك بالقضـية السابقة . والفارق سيقتصر على أن الجـسم ذاته يحل محل العـالم الخـارجى ، فيـما يتـصل بالأعضـاء المتطرفة للأحاسيس والمشاعر .

وأبسط تصوير للأمور هو أن نفترض أن العمليات الشعورية موجودة عند سطـح الأنا وكل شيء عـداهـا فى الأنا لا شـعـــورى ، والواقع أن الأحوال الـسائدة عند الحـيوان لا تخـرج عن هذا . وتتعـقد الأمـور عند الإنسان لأن العـمليات الداخلية فى الأنـا يمكنها أيضًا أن تكتسب صـفة الشـعور . ومـرد هذا إلى عمل اللغـة فهى تربط مـضمـونات الأنا بآثار الذاكرة المتصلة بالإدراكات البصـرية ولا سيما من الداخل أيضًا ، فيمكن للعمليـات الداخلية كالتصـورات والعمليات الفكرية أن تصبـح شعورية . ومن ثمة نحتاج إلى جهاز خاص للتمـييز بين الاحتمالين ، هو ما يسمى باختبار الواقع وبذلك تبطل المعادلـة : «الإدراك الحسى = الواقع (العالم الخارجى)» . والأخطـاء التى تنشأ بسهـولة وتحدث عـادة فى الأحلام ، نطلق عليها اسم الهلوسات .

أما داخل الأنا الذى يشتمل فى المـحل الأول على العمليات الفكرية ، فكيفيته هى ما قبل الشعور . ويتـميز الأنا وحده بهذه الكيفية . ولكن لا يصح القـول بأن إرتبـاط آثار الذاكـرة باللغـة شـرط لوجـود الحـالة القبلشعورية، بل إن هذه - بالأحـرى - لا تتوقف عليه ، وإن كان شرط الكلام دليلاً قاطعًا على أن العملية ذات طبيعة قبلشعورية . ومع ذلك فإن حالة ما قبل الشعور التى تتميـز من ناحية بإمكان وصولها إلى الشعور ، ومن ناحية أخرى باتصالها بالبواقـى اللغوية . هى حالة خاصة لا تتحدد طبيعـتها بهاتين الخـاصتين وحدهما . والدليل عـلى هذا أن هناك أقسام كبيرة من الأنا ، ومن الأنا الأعلى بوجه خاص ، لا يمكن أن ننكر عليها الطابع القبلشعورى ، ولكنها غالـبًا ما تظل لاشعورية ، بالمعني الوصفى للكلمة. لا نعرف السبب فى ضرورة هذا . وسنحـاول فيما بعد أن نواجه مشكلة الطبيعة الحقيقية لما قبل الشعور .

واللاشعور هو الكيفية الوحيدة المـهيمنة فى الهو . فالهو واللاشعور متصلان اتصالاً وثيقًا شـأن اتصال الأنا بما قبل الشعور ، بل إن الرابطة هنا أوثق . وإذا مـا أعدنا النـظر فى تاريخ نمو الفـرد وجـهازه النفـسى لأمكننا أن نميز فى الهو تميـيزاً هامًا ، ففى البداية كان الهو كل شىء ، وقد نما الأنا منفصلاً عن الهو تحت تأثير العالم الخارجى تأثيراً متصلاً . وفى خلال هذا النمـو البطىء ، تحولت بعض مضمونـات الهو إلى حالة ما قبل الشـعور ، ومن ثم أصبحت فى نطاق الأنا . وظلت مـضمونات

أخرى بغير تغيير فى الهو بوصفها نواته التى يصعب الوصول إليها . ولكن الأنا الحدث الضعيف تخلى - فى خلال هذا النمو - عن بعض المضمونات التى كان قد ضمها إلى نطاقه ، ودفع بها إلى اللاشعور ، كما أنه اتخذ موقفًا إزاء كثير من الانطباعات الجديدة ، كان فى وسعه أن يدخلها فى نطاقه ، فنبذها ولم تخلف أثرًا إلا فى الهو وحده . وإن اعتبرنا الأصل فنحن نسمى هذا القسم من الهو المكبوت . ولا يهمنا كثيرًا أننا لا نستطيع دائمًا أن نميز تمييزًا قاطعًا بين هذين النوعين فى لهو. وهما ينطبقان تقريبًا على التمييز بين ما كان موجودًا فى الأصل وما اكتسب خلال تطور الأنا .

والآن وقد قطعنا بالرأى فى انقسام الجهاز النفسى انقسامًا طوبوغرافيًا إلى أنا وهو ، وما يصحبه من التمييز المقابل له بين الكيفية القبلشعورية واللاشعورية ، وقررنا أن هذه الكيفية ليست إلا علامة مميزة وأنها ليست جوهره ، فإنا نواجه مشكلة جديدة : ما طبيعة الحالة التى تتجلى فى الهو من خلال كيفية اللاشعور وفى الأنا من خلال كيفية القبلشعور وما وجه الاختلاف بين الاثنين ؟

ولكنا لا نعرف عن هذا شيئًا ، ولا تكاد ومضة من ضياء تنير ظلام جهلنا الدامس . فقد اقتربنا هنا من سر الظواهر النفسية الحق الذى لم ينكشف بعد . فنحن نفترض ، جريًا على ما عودتنا عليه العلوم الطبيعية الأخرى ، أن ثمة نوعًا من الطاقة يكون فعالاً فى الحياة النفسية . ولكنا

لا نملك من الوقـائع ما يـسمح لنا بأن نزيد مـعـرفتنا بهـا ، عن طريق المماثلة بينهـا وبين صور الطاقة الأخرى . ونعتقـد أننا نعرف أن الطاقة العصبيـة أو النفسية توجد فى صورتيـن : إحداهما طليقة والثانيـة مقيدة بالأخرى ، ويعبر عن هذا بشحن المضمـونات النفسية وإضافة شحنها . بل ونذهب إلى حد القول بأن إضافـة الشحن تؤدى إلى نوع من تركيب للعمليات المختلفة ، تركيب يحـوّل الطاقة الطليقة إلى طاقة مقيدة ، ولم نستطع أن نذهب إلى أبعد من هذا . ومع ذلك فنحن نؤمن تمامًا بالقول بأن التمـييز بين الحـالة اللاشعورية والحـالة القبلشعـورية قائم أيضًا فى علاقات دينامية معينة – مما يفسر كيف يمكن للواحدة منها أن تتحول إلى الأخرى – سواء أحدث هذا تلقائيًا أم بمعونتنا .

غيـر أن ثمة حقيـقة جديدة وراء كل هذه الشكوك تـدين بإكتشافـها لأبحاث التحليل النفسى . فقد عـرفنا أن العمليات التى تقع فى اللاشعور أو فى الهو تخضع لقوانين مغايرة للـقوانين السارية فى الأنا القبلشعورى. ونسمى هذه القـوانين فى جملتـها **بالعمليات الأولية** ، تمـييزًا لهـا عن **العمليات الثانوية** التى تسيطر على الظواهر التى تجرى فيـما قبل الشعور أو فى الأنا . وهكذا أثبتت دراسة الكيفيـات النفسية – فى النهاية – أنها ليست عقيمة .

الفصل الخامس

تعليق على تفسير الأحلام

إن بحث الحالات السوية المستقرة التى تكون فيها حدود الأنا مؤمَّنة صامدة حيال الهو بواسطة المقاومات (الشحنات المضادة) ، وحيث لا يتمايز الأنا الأعلى عن الأنا لأنهما يعملان معًا فى انسجام - إن بحثًا كهذا لا يعلمنا الكثير. ولا يفيدنا إلا حالات الصراع والعصيان التى تحدث عندما تتاح لمحتوى الهو اللاشعورى فرصة للتوغل داخل الأنا والشعور ، ويكافح الأنا من جديد لحماية نفسه من هذا الغزو . فى هذه الأحوال فحسب يمكننا أن نقوم بمشاهدات تدعم أو تصحح آراءنا فى الشريكين [الأنا والهو] . والنوم حالة من هذا النوع ، لذلك كان النشاط النفسى الذى يتبدى أثناءه فى صورة الأحلام . أنسب موضوع للدرس . وبهذه الطريقة أيضًا نتحاشى الاتهام الذى يوجه إلينا كثيراً - بأننا نبنى الحياة النفسية السوية وفقًا للنتائج المرضية - إذ أن الحلم ظاهرة شائعة فى حياة الأسوياء ، مهما تمايزت خصائصه عن ظواهر حياتنا اليقظة . وكلنا نعرف أن الحلم قد يكون مختلطًا مستغلقًا بل وقد يكون خلواً من

المعنى ، وقد تناقض مـضموناته أحيانًا كل مـا نعرفه عن الواقع ، وأننا نسلك فيـه سلوك المجانين ، لأننا - ونحن نحلم - نضفـى صفة الواقع الموضوعى على مضمونات الحلم .

ويمكننا أن نتوصل إلى فهم الحلم (أو «تفسيره») إذا افترضنا أن ما نذكره منه عند اليـقظة ليس عملية الحلم الحـقيقيـة بل هو واجهة يستـتر وراءها هذه العملية . ذلك تمييزنا بين **المضمون الظاهر** للحلم ، و**أفكار الحلم الكامنة** . ونسمى العمليـة التى تحول الأخيرة إلى الأولى صـياغة الحلم . وتقدم لنا دراسة صياغة الحلم مثالاً ممتازًا عن النحو الذى تفرض به مواد اللاشعور فى الهو - أصيلة كانت أم مكبوتة - نفسها على الأنا ، فتصـبح قبلشعورية ، وأن تعانى بسـبب مقاومة الأنا تلك التـغيرات التى نسميها تشويه الحلم . وما من سمة فى الحلم إلا أمكن تفسيرها على هذا النمط .

والأفضل أن نبدأ بملاحظة أن ثمـة طريقين لتكوّن الحلم : فإما أن يكون لحافـز غريزى مقـموع عادة (رغبـة لا شعورية) من القـوة ما يكفى للتأثير فى الأنا أثناء النوم ، أو أن يتسنى لميل مستبعد من حياة اليقظة ، أى لسلسلة من الأفكار القـبلشـعورية - بكل مـا يتصل بهـا من حوافـز متـصارعة - أن تزداد فى النوم قـوة بانضمام عنصـر لا شعورى إليـها . وهكذا يصدر عـدد من الأحلام عن الهـو وعدد آخر من الأنا ، وتسـتوي الحـالتان فى طريقـة تكوين الأحـلام فيـهمـا ، وكذلك فى شـرطهمـا

الدينامى. ويعطل الأنا وظائفه مؤقتًا ويرتد إلى حالة سابقة تفصح عن حقيقة نشأته من الهو . ويتم هذا دائمًا بأن يقطع [الأنا] علاقاته بالعالم الخارجى، ويسحب شحناته من أعضاء الحس . فيمكن أن نقول بحق إن ثمة دافعًا - هو دافع النوم - ينبعث عند الميلاد ، ويهدف إلى معاودة الحياة المتقضية داخل الرحم . فالنوم عود من هذا النوع إلى رحم الأم ، ولما كان الأنا اليقظان يسيطر على الحركة فإن هذه الوظيفة تفشل فى حالة النوم ، ومن ثمة تنتفى الحاجة إلى جانب كبير من ضروب الكف المفروضة على الهو اللاشعورى . وسحب هذه الشحنات المضادة أو إنقاصها يتيح للهو قسطًا غير ضار من الحرية . والأدلة على دور الهو اللاشعورى فى تكوين الحلم كثيرة مقنعة :

(أ) فذاكرة الحلم أشمل من الذاكرة فى حالة اليقظة . فالأحلام تعيد ذكريات نسيها الحالم وليست فى متناوله عند يقظته .

(ب) يستخدم الحلم عدداً كبيراً من الرموز اللغوية التى لا يعرف الحالم معناها فى أغلب الأحيان . بيد أننا نستطيع - بفضل خبرتنا - التحقق من معناها . ويبدو أنها صادرة عن المراحل المبكرة لتطور اللغة .

(جـ) غالباً ما تستعيد ذاكرة الحلم انطباعات عن طفولة الحالم المبكرة نستطيع الجزم بأنها قد نسيت بل إنها أصبحت لا شعورية - بالكبت. وهو ما يفسر العون الذى لا غنى عنه والذى تزودنا به

الأحلام عندما نحاول أن نستنبط العـهد الأول من حياة الحالم أثناء العلاج التحليلى للأمراض العصابية .

(د) علاوة على هذا ، يفـصح الحلم عن مضـمونات لا يمكن أن يكون مصدرها الحياة الناضجة ، ولا عهد طفولة الحالم المنسى . ويتعين علينا أن نعتبر هذه المضمونات جزءاً من التراث القديم الذى آل إلى الطفل من خبـرة الأسلاف ، والذى يجلبـه معه إلى العـالم قبل أية خبرة معينة . ونجد ما يوازى هذه المواد الخاصة بالنشوء النوعى فى أقدم أساطيـر الإنسان ، وفى العادات المتـبقية . فـالحلم يمدنا إذن بمصدر لا يستهان به لما قبل التاريخ الإنسانى .

وما يجعل للحلم فى نظرنا قيمـة لا تقدر ، إظهاره النحو الذى تغزو به المواد اللاشـعورية الأنا . أى أن الأفكار القبلشـعورية التى تجد فيـها [المواد اللاشعورية] تعبيراً عن نفسـها تعامل – فى عملية صياغة الحلم – كمـا لو كانت أقـساماً لا شـعورية من الهـو . أما فى الطريقـة الأخرى لتكوين الحلم فـإن الأفكار القـبلشـعورية التى تـعززت بدافع غـريزى لا شـعورى تعـود إلى حالة الـلاشعـور . وبهذه الطريقـة فـقط يمكننا أن نكتشف قـوانين ما يحـدث فى اللاشعـور ، وأوجه الخلاف بينـها وبين القـواعد المـألوفة لنا فى التـفكير اليـقظ . فصـياغـة الحلم إذن هى فى جـوهرها حالة من حـالات المـعالجـة اللاشـعورية للعـمليـات الفكرية القبلشعورية . ويمكن التشبـيه بذلك من التاريخ : يحكم الفاتحون الغزاة

بلداً مهزوماً بحسب شريعتهم الخاصة ، لا بحسب الشريعة القائمة به سلفاً . ولكن لا شك أن نتيجة صياغة الحلم هى التوفيق بين الأضداد . فإن تنظيم الأنا لم يشل بعد تماماً ، فيمكن تبين تأثير تنظيم الأنا الذى لم يشل بعد فى التحريف المفروض على المادة اللاشعورية ، وفيما يكون غالباً محاولة فاشلة لإعطاء النتيجة النهائية صورة يقبلها الأنا (المعالجة الثانوية) . وفى تشبيهنا السالف ، يكون ذلك تعبيراً عن مقاومة المغلوبين المستمرة .

وقوانين ما يحدث فى اللاشعور ، وقد تتكشف على هذا النحو ، ملفتة للنظر وكافية لتفسير معظم ما يبدو لنا غريباً فى الحلم . هناك قبل كل شىء نزوع أخاذ إلى التكثيف ، أى ميل إلى تكوين وحدات جديدة من عناصر يتعين علينا فى تفكير اليقظة أن نميز بينها . ونتيجة لهذا يمكن غالباً أن يمثل العنصر الواحد من عناصر الحلم الظاهر عدداً من أفكار الحلم الكامنة ، كما لو كانت تلميحاً يشير إليها جميعاً ، وهو بوجه عام مختصر اختصاراً فريداً بالقياس إلى المادة الغنية التى صدر عنها . وهناك خاصة أخرى للحلم متصلة إلى حد ما بالخاصة السابقة هى سهولة نقل الشحنات النفسية من عنصر إلى آخر (الشحن) بحيث نجد عنصراً من عناصر الحلم الظاهر بدا وكأنه أوضح العناصر ومن ثمة أهمها بينما كان ثانوياً بالنسبة لأفكار الحلم ، وعلى العكس من ذلك فإن العناصر الجوهرية من أفكار الحلم فى الحلم الظاهر تتمثل فى تلميحات

تافهة . أضف إلى هذا أن صياغة الحلم تكتفى - عادة - بأتفه علاقة بين عنصرين، لكى تحل أحدهما محل الآخر فى أية حالة أخرى ، ويمكن أن نتصور بسهولة كيف تعمل حيلتا التكثيف والنقل هاتان على زيادة صعوبة تفسير الحلم والكشف عن العلاقات بين الحلم الظاهر وأفكار الحلم الكامنة. ومن وجود هاتين النزعتين نحو التكثيف والنقل ، تستنتج نظريتنا أن الطاقة فى الهو اللاشعورى - تتمتع بقسط أوفر من حرية الحركة ، وأن الهو يهتم فوق كل شىء بتفريغ كميات التهيج[1] ؛ وتستخدم نظريتنا هاتين الخاصتين فى تحديد سمات العمليات الأولية التى نسبناها إلى الهو .

وقد تعلمنا - من دراسة صياغة الحلم - خصائص كثيرة أخرى ، هامة بقدر ما هى ملفتة ، للعمليات التى تجرى فى اللاشعور . ولكنا لن نستطيع هنا أن نذكر منها إلا القليل . فقواعد المنطق القاطعة لا قيمة لها فى اللاشعور ، بل يمكن القول بأنه مملكة اللامنطق . فالحوافز ذات الأهداف المتعارضة توجد جنبًا إلى جنب فى اللاشعور، دون أن تقوم أدنى حاجة إلى التوفيق بينها . ولا تقوم بينها أحيانًا أى تأثير متبادل ، أما إذا وجد هذا التأثير ، فقد لا يتخذ أى قرار بل يأتى توفيق سخيف ، لأنه يتضمن عناصر متعارضة . وبالمثل لا تظل الأضداد منفصلة الواحد

---

(١) مثال هذه قصة ضابط الصف الذى يتقبل - صامتًا - تقريعًا عنيفًا من رئيسه ولكن غضبه يجد له منفذًا فى أول نفر برىء يقابله صدفة .

منها عن الآخر، بل تعالج كما لو كانت شيئًا واحدًا بحيث يمكن لأى عنصر فى الحلم الظاهر أن يدل على نقيضه تمامًا . وقد تنبه بعض اللغويين إلى أن هذا يصدق بالمثل على أقدم اللغات ، وأن الأضداد مثل : قوى وضعيف، منير ومظلم ، مرتفع ومنخفض ، كان يعبّر عنها فى الأصل بمصدر واحد، إلى أن استخدم اشتقاقان مختلفان للكلمة الأصلية – للتمييز بين معنيين ، ويبدو أن آثار هذا المعنى البدائى المزدوج بقيت حتى فى اللغات التى وصلت إلى مرتبة عليا فى التطور كاللغة اللاتينية ، كما نجد فى استخدام altus ومعناها (مرتفع ومنخفض) acer (مقدس ودنس) وغيرهما.

ونظرًا لتعقد العلاقات وغموضها بين الحلم الظاهر والمضمونات الكامنة خلفه ، يحق لنا أن نتساءل – أى الطرق يسلكه المرء فى المحل الأول للتأدى من إحداها إلى الأخرى ؟ وهل نعتمد على التخمينات الموفقة والتى قد تعززها ترجمة الرموز التى ترد فى الحلم الظاهر ؟ ويمكن أن نجيب على هذا بأن المشكلة يمكن أن تحل حلاً مرضيًا فى الغالبية العظمى من الحالات ، ولكن هذا لا يتم إلا بمساعدة المستدعيات التى يزودنا بها الحالم نفسه ، من عناصر المضمون الظاهر . وكل طريقة أخرى تعسفية ولا تؤدى إلى اليقين . ولكن مستدعيات الحالم توضح الحلقات الوسطى التى نتمكن بمساعدتها من ملء الفجوات بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة ، وأن نبعث بواسطتها المضمون الكامن للحلم وأن «نفسره» . فلا عجب أن تخفق عملية التفسير هذه التى تسير فى عكس إتجاه عملية صياغة الحلم فى الوصول إلى اليقين التام .

ويبقى علينا أن نقدم تفسيراً دينامياً لهذه الظاهرة - لماذا يكلف الأنا النائم نفسه بمهمة صياغة الحلم ؟ ومن اليسير لحسن الحظ أن نجد هذا التفسير . فإن كل حلم فى دور التكوين يستعين باللاشعور فى مطالبة الأنا بإشباع حافز غريزى إن كان ينبعث من الهو ، أو بحل الصراع ، أو إزالة شك ، أو إتخاذ قرار ، إن كان ينبعث عن بقايا النشاط القبلشعورى فى حياة اليقظة . على أن الأنا النائم يصدر عن الرغبة فى الاحتفاظ بالنوم ، فيحس بهذه المطالبة باعتبارها إزعاجاً ويسعى للتخلص من هذا الإزعاج . ويحقق الأنا هذا بما يشبه الإذعان : إذ تتحقق الرغبة فى هذه الأحوال تحقيقاً لا ضرر فيه . وبذا يتخلص من المطالبة . وهذا الإبدال للمطالبة عن طريق تحقيق الرغبة يظل العمل الجوهرى لصياغة الحلم .
وقد يحسن بنا أن نصور هذا بثلاث أمثلة بسيطة : حلم جوع ، وحلم راحة ، وحلم رغبة جنسية ، فمثلاً عندما تستبد بحالم - أثناء نومه - حاجة إلى الطعام ، فإنه يحلم بوجبة شهية ويمضى فى نومه . وقد كان له الخيار بالطبع بين أن يستيقظ ليأكل ، أو أن يواصل نومه . ولكنه آثر الأمر الأخير وأشبع الجوع عن طريق الحلم ، إلى حين على الأقل . فإن ألح عليه الجوع فلابد أن يستيقظ . والحالة الأخرى : يجب على النائم أن يستيقظ ليصل فى الوقت المحدد إلى عمله فى العيادة . ولكنه يمضى فى نومه ، ويحلم أنه فى العيادة ، ولكن بوصفه مريضاً لا حاجة به إلى مغادرة الفراش . والمثال الأخير : تنبعث رغبة أثناء الليل فى الاستمتاع بموضوع جنسى محرم ، بزوجة صديق . فيحلم النائم بالاتصال

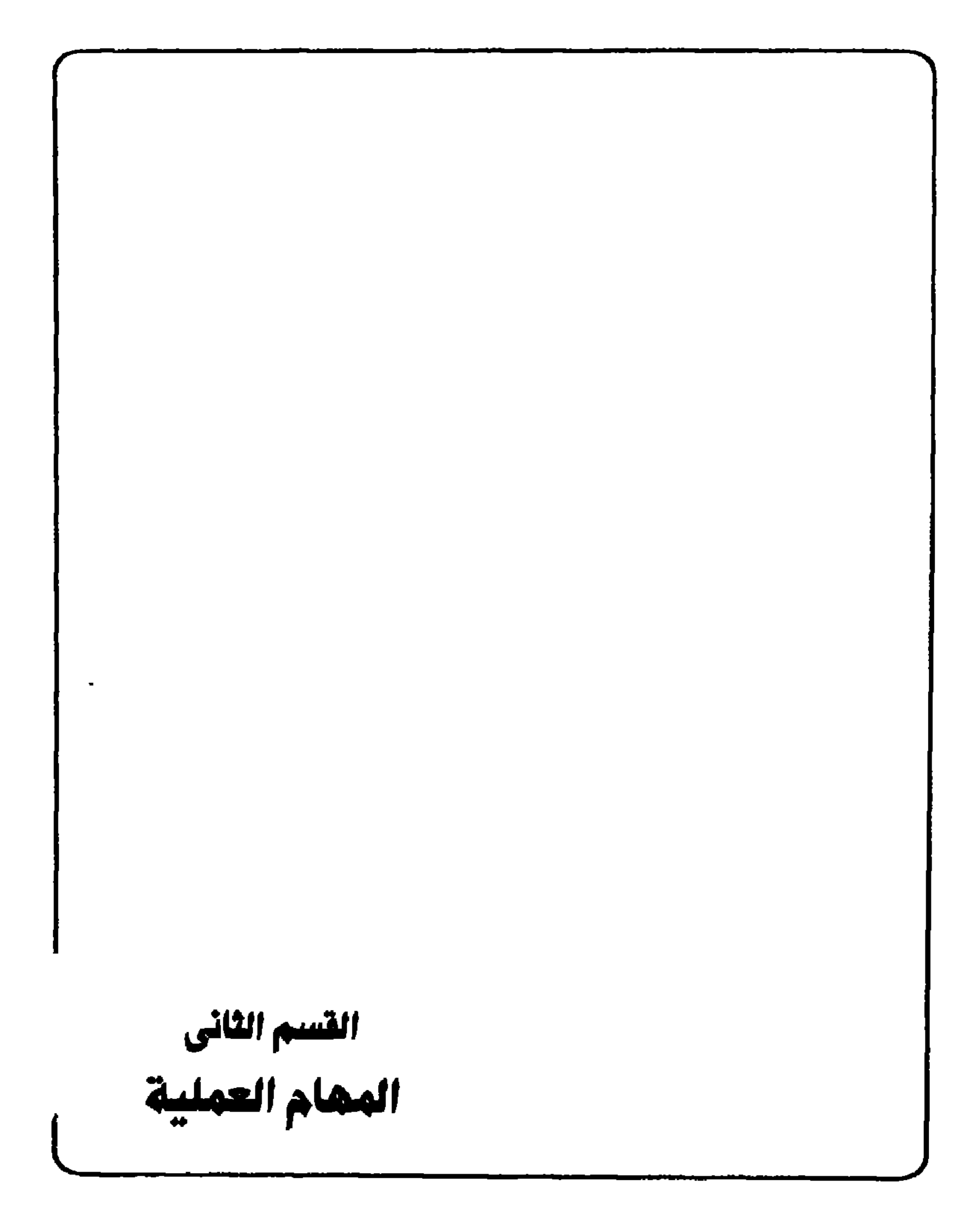
الجنسى، لكنه لا يتصل بهذا الشخص ذاته ، بل بآخر يحمل نفس الاسم ، ولا يشعر نحوه - فى الواقع - بميل ما ؛ أو قد تتبدى معارضته للرغبة فى أن تظل خليلته فى الحلم مجهولة الاسم تماماً .

وليست كل الحالات طبعًا بهذه البساطة . ففى تلك الأحلام التى تنبعث عن بواقى اليوم السابق التى لم تحل ، والتى لم يعترها أثناء النوم إلا تعزيز من اللاشعور ، فى هذه الأحلام لا يكون من اليسير غالبًا أن نكتشف القوة اللاشعورية وتحقيق الرغبة المتصلة بها ؛ ولكن لنا أن نفترض أن هذا التحقيق موجود دائمًا . والقول بأن الأحلام تحقيق لرغبة قد يؤدى إلى عدم التصديق إن تذكرنا ذلك العدد الكبير من الأحلام التى لها مضمون مؤلم مباشر وتدعو إلى اليقظة فى قلق ، فضلاً عن الأحلام العديدة الخالية من كل نبرة وجدانية واضحة . ولكن الاعتراض القائم على أحلام القلق لا يصمد للتحليل . فلا يجب أن ننسى أن الحلم هو دائمًا نتيجة صراع ، وأنه نوع من البناء التوفيقى . فما هو إشباع بالنسبة للهو اللاشعورى قد يكون لنفس السبب موضوعًا للقلق بالنسبة للأنا .

وفى أثناء صياغة الحلم ، تكون الغلبة حينًا للاشعور ، وحينًا للأنا. وأحلام القلق هى فى الأغلب تلك الأحلام التى لم يعتر مضمونها إلا تحريف ضئيل . فإذا كان مطلب اللاشعور من القوة بحيث لا يستطيع الأنا النائم أن يدفعه عن نفسه بالوسائل التى يملكها ، فإنه ينبذ الرغبة فى النوم ، ويعود إلى حياة اليقظة . وتسمح لنا مشاهداتنا كلها أن نقرر

أن الحلم فى كل حالة محاولة لإزالة منغصات النوم بتحقيق رغبة . فهو من ثمة حارس النوم . ويتفاوت حظ هذه المحاولة من النجاح ؛ وقد تخفق - وفى هذه الحالة يستيقظ النائم ، ويبدو أن ما يوقظه هو الحلم ذاته . شبيه بهذا ، ذلك الحارس الليلى الشجاع ، الذى وكل إليه أن يرعى نوم سكان القرية الصغيرة ، والذى لا يجد أحيانًا مناصًا من أن يطلق النذير ، ويوقظ القرويين النائمين .

ونختتم هذه الملاحظات بعبارة تبرر ذلك الوقت الطويل الذى أنفقناه فى مشكلة تفسير الأحلام . فقد بينت التجربة أن الحيل اللاشعورية التى عرفناها عن طريق دراسة صياغة الحلم ، والتى وضحت لنا تكوين الحلم، تساعدنا أيضًا فى فهم تكوين الأعراض المرضية الغامضة التى تسترعى انتباهنا فى الأمراض العصابية والذهانية . إن مثل هذا التطابق لا يمكن إلا أن يبعث فينا آمالاً عراضًا .



القسم الثانى

المهام العملية

الفصل السادس

فن التحليل النفسى

إذن فالحلم ذهان ، بكل ما يصاحبه من سخافات وهذيان وأوهام . والحق أنه ذهان قصير الأمد لا ضـرر منه ، بل إنه يؤدى وظيفة نافعة ، ويتم بمـوافقـة الحالم وينتـهى بفعل إرادى يصـدر عنه. ومع ذلك فـهو ذهان، وقد تعلمنا منه أن تعـبيرات الحياة النفـسية مهـما كانت على هذا النحـو من العمق ، يمكن أن تـزول ، وأن تخلى السبـيل إلى الوظيفـة السوية : فـهل من الجرأة ، والحـالة هذه ، أن نأمل فى إمكان إخـضاع أمراض النفس التلقـائية المخيفـة لسيطرتنا ، والعمل على شـفائها ؟ إن تحت يدنا من المعارف ما يـعدنا للقيام بهذه المهمـة . كان من مسلماتنا أن مهمة الأنا هى إشباع مـطالب القوى الثلاث التى يخضع لها ، الواقع والهـو والأنا الأعلى- وبذلك يسـتـبـقى نظامـه الذاتى ، ويحـافظ على اسـتـقلالـه الذاتى . ولا يمكن أن يكون الشـرط الضـرورى للحـالات المرضـية التى ذكرناها إلا ضعف الأنا ضـعفًا نسبـيًا أو مطلقًا يمنعه عن القيام بمهامه . ولعل أخـطر واجبات الأنا هو مناهضة المطالب الغريزية

للهو ، ومن أجل ذلك ، يضطر إلى إنفاق مقـادير عظيمة من الطاقة فى الشحنات المضادة . بيـد أن مطالب الأنا الأعلى قد تكون أيضًا من القوة والجبروت بحـيث تكاد تشل الأنا عن مهامه الأخـرى . ولنا أن نفترض أن الهـو والأنا الأعلى - فى الصراعـات الاقتـصادية التى تنشـأ آنذاك - يتحدان غالبًا ضد الأنا المثقل بالأعباء والذى يتشبث بالواقع لكى يحتفظ بحال السواء . ولكن عندما يكون الهو والأنا الأعلى بالغى القوة ، فإنهما قد ينجحان فى زعـزعة تنظيم الأنا وتغييره بحيث تضطرب عـلاقته الذاتية بالواقع ، بل وتنقطع . وقـد رأينا هذا فى الحلم : فـعندما ينفـصل الأنا عن واقع العـالم الخـارجى ، فـإنه ينزلق إلى الذهان ، بتـأثيـر العـالم الداخلى .

وبناء على هذه الاعتـبارات ، نضع خطتنا فى العلاج . فقـد ضعف الأنا نتيجة للصراع الداخلى ، فعلينا أن نتقدم لمساعدته . ويشبه الموقف حربًا أهليـة لا يمكن أن يحسم مـصيرها إلا عـون حليف من الخارج . ويجب على الطبيـب المحلل وعلى الأنا الضعـيف للمريض - إذ يثبـتان أقدامـهما فى العـالم الخارجى الواقـعى - أن يتحدا ضـد الأعداء وهم : المطالب الغريزية للهو ، والمطالب الأخلاقية للأنا الأعلى . ونحن نعقد ميثـاقًا بيننا . فيتعـهد الأنا السقيم بأن يخلص لنـا القول إخلاصًا تامًا - أعنى بأن يضع تحت تصـرفنا كل المواد التى يزوده بهـا إدراكه الذاتى . ونحن نؤكد له أننا سنـتوخى الأمانة التامـة ، ونضع فى خدمتـه تجاربنا

لتأويل المواد التى أثر فيها اللاشعور ، وستعوض معارفنا جهله ، وتهيىء للأنا لديه السيطرة ثانية على المناطق التى هجرها فى حياته النفسية . وعلى هذا الميثاق يقوم الموقف التحليلى .

ولا نكاد نخطو هذه الخطوة حتى يصادفنا أول إخفاق وأول دعوة إلى التواضع . فلكى يصبح الأنا لدى المريض حليفًا نافعًا فى مهمتنا المشتركة، يجب عليه - مهما كان ضغط القوات المعادية عليه عظيمًا - أن يكون قد احتفظ بقدر من التماسك ومن فهم مقتضيات الواقع . ولكن ، يجب ألا نتوقع هذا من الأنا لدى الذهانى ، فهو لا يستطيع أن ينفذ ميثاقًا كهذا ، بل ولا يكاد يستطيع أن يبرمه أصلاً . ولن يلبث أن ينبذنا نحن وما نقدمه له من عون متصل بالأقسام المنتبذة من العالم الخارجى التى لم تعد تعني بالنسبة إليه شيئًا . وهكذا نتبين أنه لابد لنا من العدول عن تطبيق منهجنا العلاجى على الذُهانيين ، وقد يكون العدول نهائيًا وقد يكون مؤقتًا فحسب ، إلى أن نكتشف منهجًا آخر أكثر ملاءمة لتحقيق هذه الغاية .

ولكن هناك فريقًا آخر من المرضى النفسيين الذين يشبهون الذهانيين فى الظاهر شبهًا وثيقًا ، نعنى العدد الذى لا يحصى ممن يعانون الأمراض العصابية الخطيرة . ولابد أن تكون شروط المرض والحيل المرضية لديهم واحدة أو على الأقل متشابهة كل التشابه . إلا أن الأنا لديهم قد أثبت قدرته على المقاومة وكان أقل تحللاً . ويستطيع الكثيرون

منهم أن يحتفظوا بـمراكزهم فى الحياة الواقـعية بالرغم من متاعـبهم وما ينتج عنها من اضطرابات . ويسـتطيع هؤلاء العصابيون إبداء اسـتعدادهم لقبول معونتنا . فلنقصر اهتمامنا عليهم ، ونر إلى أى حد وبأى الوسائل نستطيع أن «نشفيهم» .

وهكذا فنحن نعقـد ميثاقنا مع العصـابيين : الصراحة التامـة مقابل الأمانة المطلقة . وقـد يبدو دورنا هذا شبيهًا بدور من يتقـبل الاعتراف ، على أن هناك فرقًا كـبيرًا فإننا لا نكتـفى بأن نسمع من مريضنا مـا يعرفه وما يخفـيه عن الآخرين ، بل نريد أيضًا أن نكشف عمـا لا يعرفه هو . وإذا نضع هذه الغايـة نصب أعيننا ، نعطيه تـعريفًا مفـصلاً لما نقـصده بالصراحة . فنفرض عليه القاعدة الأساسية للتحليل التى يجب عليـه بعد ذلك أن يلتزمها فى علاقته بنا : ليس عليه فقط أن يخبرنا بما يستطيع أن يقوله عن قـصد وإرادة ، أى بما يسـرى عنه وكأنه الاعتـراف ، بل عليه أيضًا أن يمدنا بكل مـا يشاهده فى نفسه ، وكل ما يجـول بخلده ، حتى وإن كان مـما ينفر من قـوله ، وحـتى وإن بدا تافهًا أو عديم المعنى بالفعل. فإذا استطاع بعد هذه الوصايا أن يستـبعد نقده الذاتى ، فسيزودنا بمجموعة من المواد والخواطر والأفكار والذكريات ، مما يقع تحت تأثير اللاشعور ، ويكون غالبًا من مـشتقاته المباشرة - مما يسـمح لنا بتخمين طبيعة مواده اللاشعـورية المكبوتة ، وتزويد المريض بمعلومات تزيد من معرفته باللاشعور لديه .

وينبغى ألا نظن أن دور الأنا لديه قاصر على أن يمدنا مطيعًا مستسلمًا بالمواد المطلوبة ، وأن يتقبل ترجمتنا لها عن طيب خاطر . وما يحدث فى الواقع لهى أمور جد مغايرة ، بعضها كنا نتوقعه ، والبعض الآخر حرى بأن يفاجئنا . وأغربها أن المريض لا يكتفى بأن ينظر إلى المحلل على ضوء الواقع بوصفه معينًا وناصحًا ، يكافأ على الجهود التى يبذلها ، ويقنع هو نفسه بدور الدليل فى الجبال أثناء تسلق وعر ، بل يرى المريض فى محلله بعثًا أو نسخًا لشخص هام فى طفولته أو ماضيه ، ومن ثمة يحول إليه مشاعر ومواقف سلوكية كانت تنصب بلا ريب على ذلك المثال. وسرعان ما يتضح أن عامل التحويل هذا عامل ذو مغزى لا نحلم به : فهو من ناحية أداة معونة لا تضارع ، وهو من ناحية ثانية مصدر لأخطار فادحة . فهذا التحويل مزدوج الميل فهو يتضمن اتجاهات إيجابية ودية ، وأخرى سلبية عدائية تجاه المحلل ، الذى يحله المريض دائمًا محل أحد والديه : أبيه أو أمه . وما دام التحويل إيجابيًا فهو يقدم لنا أعظم العون . فهو يغير الموقف التحليلى كله ، ويطرح جانبًا رغبة المريض العقلية فى الشفاء والتخلص من متاعبه، وتقوم مقامها الرغبة فى إرضاء المحلل والظفر بتأييده ومحبته ، بحيث تصبح القوة الدافعة الحقيقية لمشاركة المريض فى العملية التحليلية ، فيقوى الأنا الضعيف ، وبتأثير هذه الرغبة يحقق المريض أمورًا كانت محالة بدونها ، فتختفى أعراضه ويبدو أنه قد شفى ، وما كل ذلك إلا حبًا للمحلل . ويجب على المحلل أن يعترف لنفسه بتواضع أنه قد أخذ

على عاتقه مهمة شاقة دون أن يخطر بباله ما سيقع تحت تصرفه من قوى جبارة .

وبالإضافة إلى هذا فإن علاقة التحويل تحمل معها ميزتين أخريين . فعندما يضع المريض المحلل مكان أبيه أو أمه ، فإنه يتيح له السيطرة التى يمتلكها الأنا الأعلى عنده على الأنا من حيث إن أبويه - كما نعلم - كانا أصل الأنا الأعلى عنده ، فيتاح للأنا الأعلى الجديد - آنذاك - أن يقوم بما يشبه التربية اللاحقة للعصابى، فيستطيع أن يصحح الأخطاء التى تعد التربية الأبوية مسئولة عنها . ولكن يجب أن نحذر ههنا من أن يساء استخدام هذا النفوذ الجديد. فمهما استبد بالمحلل الإغراء بأن يصبح معلمًا ونموذجًا ومثالاً لغيره من الناس ، بأن يصوغهم على صورته، فعليه ألا ينسى أن مهمته غير ذلك فى العلاقة التحليلية، بل لن يكون مخلصًا فى مهمته إن ترك ميله يسيطر عليه. ولن يعدو إذن أن يكرر أحد أخطاء الوالدين عندما كانا يقضيان على استقلال طفلهما بما لهما من تأثير، وأن يُحل محل الاعتماد المبكر باعتمادًا جديدًا. ويجب على المحلل أن يحترم المريض فى كل المحاولات التى يبذلها لتحسين حالته وإنماء فرديته. ولا يكون مقدار النفوذ الذى يمارسه ممارسة مشروعة إلا بقدر ما أصاب المريض من الكف فى نموه الانفعال. فهناك عصابيون كثيرون ظلوا على النمط الطفلى بحيث لابد من أن يعاملوا كالأطفال أثناء التحليل .

وهناك ميزة أخرى للتحويل ، هى أن المريض يبرز لنا بوضوح مجسم جزءًا هامًا من تاريخ حياته ، لم يكن ليستطيع - لولا التحويل -

إلا أن يعرضه لنا عـرضًا ناقصًا . ويبدو أنه يحيـا هذا الجزء أمامنا بدلا من أن يرويه لنا .

ولننتقل الآن إلى الوجه الآخـر للموضوع . لما كان التحـويل يعيد علاقـة المريض بوالديه ، فإنه يتـخذ أيضًا طابعهـا المزدوج . وغنى عن البيـان أن الإتجاه الموجب بين المـحلل يتغيـر ذات يوم إلى اتجاه سلبى عدائى. ويعد هذا بالمثل تكراراً للماضى . فطاعـته لأبيه (إذا كان المحلل يمثله) ، وسعـيه إلى نيل حظوته ، يرجعان فى الأصل إلى رغبـة شهوية موضوعـها الوالد . وفى يوم ما ، تقحم هذه الرغـبة نفسهـا فى التحويل أيضًا وتطالب بالإشبـاع . ولكن هذه الرغبة تقابل بالحـرمان فى الموقف التحليلى . فـلا يمكن أن تقوم أية علاقات جنسـية واقعيـة بين المرضى والمحللين ؛ حتى أسـاليب الإشباع الأكثر رقة ، كـأمارات الإيثار والألفة وما إلى ذلك ، يجب ألا يبذلها المـحلل إلا بحساب . ولا يلبث شعور بالمذلة أن يتـخذ ذريعة لإنقلاب موقف المـريض (من الود إلى العداء) . ومن المحتمل أن يكون قد حدث مثل ذلك فى طفولة المريض .

وللمـرء أن يرتاب فى أن الـنجـاح العـلاجى الذى يحـدث بفـضل التحـويل الإيجابى إنما هو من قـبيل الإيحاء . فعنـدما يغلب التـحويل السلبى فإنه يذرو هذا النجاح كمـا تذرو الرياح الهشيم . ويروعنا أن نرى أن كل ما بذلناه حتى الآن من جهـد وعناء قد ذهب أدراج الرياح . حتى ما اعتبرناه كسبًا ثقافيًا دائمًا للمريض ، أعنى فهمه للتحليل النفسى ووثوقه

بنفسه ، حتى هذا يمحى فجأة . ويسلك المريض كالطفل الذى لا قدرة له على الحكم ، بل يصدق - تصديقًا أعمى - كل من يحبه ولا أحد سواه. وواضح أن خطر حالة التحويل هذه هو أن يسىء المريض فهم طبيعتها ، وأن يتوهمها خبرات واقعية جديدة بدلاً من أن يراها انعكاسات للماضى. وعندما يتبين (أو تتبين) الرغبة الشهواتية القوية التى تختفى وراء التحويل الإيجابى ، فإنه يظن أنه انغمر فى حب عنيف ، وعندما ينقلب التحويل، فإنه يشعر أنه مهان منبوذ ، فيكره المحلل ويعتبره عدواً ، ويتهيأ لترك التحليل . وفى هاتين الحالتين المتطرفتين جميعًا ، ينسى الميثاق الذى ارتبط به عند بدء العلاج ، ويعجز عن المضى فى العمل المشترك . أما واجب المحلل ، فهو أن ينتشل المريض كل مرة من الوهم الذى يهدده باستمرار ، وألاّ ينفك يبصره بأن ما يتوهمه وقائع حية جديدة ليس إلا انعكاساً للماضى . وعلى المحلل أن يعمل على أن لا يبلغ الحب أو العداء حدهما الأقصى حتى يحول بين مريضه وبين التردى فى حالة لا سبيل إلى إنتشاله منها . والوسيلة إلى ذلك أن يحذر المريض ، فى الوقت المناسب ، من هذه الاحتمالات قبل وقوعها وألا يفوته ظهور العلامات الأولى لها . واللباقة فى معالجة التحويل تؤتى دائمًا أطيب الثمار . وعندما ننجح - كما يحدث عادة - فى إقناع المريض بالطبيعة الحقيقية لظاهرة التحويل . نكون قد غنمنا سلاحًا قويًا من قبضة مقاومته، ونكون قد حولنا الأخطار إلى مكاسب . لأن المريض

لا ينسى أبدًا مما خبره فى صور التحويل الذى تفوق قدرته فى الإقناع كل ما يمكن للمريض أن يكتسبه بالطرق الأخرى .

وأبعد الأمور عما نحب أن يسلك المريض خارج التحويل بدلاً من أن يتذكر . والمسلك الأمثل بالنسبة لأهدافنا هو أن يسلك المريض بمنتهى السواء خارج دائرة العلاج ، وألا يعبر عن استجاباته الشاذة إلا فى التحويل .

ويبدأ منهجنا فى تقوية الأنا الضعيف بتوسيع نطاق معرفته بنفسه . ونحن نعرف أن هذا ليس كل شىء ، بل هو الخطوة الأولى . ففقدان مثل هذه المعرفة يعنى بالنسبة للأنا فقدان القوة والنفوذ ، وهو أول علامة ملموسة على أن الأنا قد قيدته وعاقته مطالب الهو والأنا الأعلى . والجزء الأول من المعرفة التى علينا أن نقدمها هو العمل الفكرى من جانبنا ، وتشجيع المريض على التعاون معنا فيه . وإنا لندرك أن هذا المجهود الأول يجب أن يعد لمهمة أخرى أكثر صعوبة . ولن يفوتنا الجانب الدينامى لهذه المشكلة حتى فى أثناء عملنا التمهيدى . فنحن نحصل على موادنا من مصادر متعددة : ما تزودنا به معلومات المريض ومستدعياته الطليقة ، ومما يبديه لنا فى حالات تحويله ، ومما نستخلصه من تأويل أحلامه ، ومما تكشف عنه فلتاته . وكل هذه المواد تعيننا على استنتاج ما حدث له وما نساه ، وما يحدث حاليًا له دون أن يفهمه ، ولكننا لا يفوتنا أبدًا – فى كل هذا – أن نميز تمييزاً حاسمًا بين ما نعرفه نحن وما

يعرفه هو . فنحن نتحاشى أن نقول له فجأة ما نكون غالبا قد اكتشفناه منذ البداية ، أو نتجنب أن نخبره بكل ما نظن أننا اكتشفناه . ونقدر بعناية الوقت الذى يحسن بنا فيه أن ندلى إليه باستنتاجاتنا ، وننتظر حتى تظهر لنا لحظة مناسبة . وتحديدها أن ليس بالأمر الهين دائمًا . فنحن نتجنب عادةً أن ندلى إليه باستنتاج أو تفسير حتى يكون قد قارب الوصول إليه بحيث لا يبقى أمامه إلا خطوة واحدة ، هى فى الواقع التركيب النهائى . وإذا نحن سلكنا طريقًا آخر ، فانهلنا عليه بتفسيراتنا قبل أن يكون معداً لها ، فإما ألا يكون لقولنا أية نتيجة ، وإما أن تثير انفجاراً عنيفًا فى المقاومة يتعذر معها استمرارنا فى العمل بعد ذلك ، بل وقد يهدد بإيقاف العمل تمامًا . أما عندما نكون قد أعددنا كل شىء كما يجب ، فإنه يحدث غالبًا أن يؤيد المريض مباشرةً استدلالنا ، ويستعيد بنفسه الحادث الداخلى أو الخارجى الذى كان قد نسيه . وبقدر ما يكون فى استدلالنا من دقة فى مطابقة تفاصيل ما نسيه المريض ، تكون سهولة تأييده له . وفى هذه الحالة لا يعود هناك فرق بين معرفتنا ومعرفته .

وإذا ما ذكرنا المقاومة ذكرنا الجزء الثانى من مهمتنا الذى يفوق الجزء الأول أهمية . فقد سبق أن ذكرنا أن الأنا يحمى ذاته من توغل العناصر غير المرغوب فيها ، والواردة من الهو المكبوت اللاشعورى ، بواسطة الشحنات المضادة ، التى يجب أن تبقى سليمة حتى يتسنى للأنا أن يؤدى وظائفه بطريقة سوية . وكلما اشتد وقع الضغط على الأنا اشتد

تشبثه بتلك الشحنات المضادة تشبثًا مذعوراً ، حتى ينقذ ما بقى له من كل غزو جديد . ولكن هذا الإتجاه الدفاعى لا ينسجم إطلاقًا وأهداف علاجنا . فنحن نرغب - على الضد - فى أن يقدم الأنا - تحدوه ثقته بمعونتنا - على اتخاذ موقف الهجوم حتي يستعيد ما فقده . وهنا نشعر بقوة هذه الشحنات المضادة التى تتخذ صورة المقاومات ضد عملنا . فالأنا يتراجع أمام مثل هذه المحاولات التى تبدو خطرة ومنذرة بالألم ، ويجب أن يُستحث دومًا على المضى ، وأن يخفَّف عنه ، إذا ما أردنا ألا يخذلنا . وقد سمينا هذه المقاومة التى تظل طوال العلاج ، والتى تتجدد فى كل مرحلة جديدة من العمل ، بمقاومة الكبت ، وإن لم تكن هذه التسمية صحيحة كل الصحة . وسنرى أن هذه المقاومة ليست هى المقاومة الوحيدة التي تقابلنا . ومن الشائق أن توزيع الأدوار المختلفة فى هذا الموقف يكون مقلوبًا ، لأن الأنا يناضل ضد ندائنا ، فى حين أن اللاشعور ، وهو خصمنا عادةً ، يخف لمعونتنا ، لأن به دافعًا طبيعيًا إلى الصعود ، وقصارى ما يطمح إليه أن يندفع عبر الحدود التى تعوقه إلى الأنا وإلى الشعور . وحين نربح قضيتنا وننجح فى إقناع الأنا بأن يتغلب على مقاوماته ، فإن النضال ، الذى ينشأ يستمر تحت إشرافنا وبعوننا . وسيان أن يسفر هذا النضال عن قبول الأنا بعد فحص جديد مطلبًا غريزيًا سبق له أن رفضه ، أو عن رفضه إياه رفضًا نهائيًا . ففى كلتا الحالتين . تخلصنا من خطر داهم ، واتسع مجال الأنا ، ولم تعد به حاجة إلى تبديد مقدار كبير من الطاقة .

وفى العمليـة التحليليـة يأخذ التغلب على المـقاومات أكـثر الوقت وأقصى العناء . ولكن هذا الجهد يـؤتى ثماره ، ويحدث فى الأنا تعديلاً ملائمًا يحتفظ به ويدوم طوال حياة المريض مهـما كان مصير التحويل . ونكون فى الوقت نفسه قد عملنا على إزالة التعديل الذى كان اللاشعور قد أحدثـه فى الأنا ، لأنه كلما اسـتطعنا أن نكشف عن مشـتقـاته فى الأنا نكون قد وجـهنا الإنتباه إلى أصـلها غيـر المشروع ، وحـثثنا الأنا على التخلص منها . ونتذكر أن أحد الشروط الأساسية لقيامنا بالعلاج يتضمن أن لا تكون هذه الـتـعـديلات التى طـرأت على الأنا بتـدخل عـناصـر لاشعورية قد تجاوزت حدًا معينًا .

وكلما تقدم عملنا ، وعمقت معرفـتنا بالحياة النفسية عند العصابى ، إزداد وضوح عاملين جديـدين يستدعيان اهتمامنا ، ويتـطلبان أدق الإنتباه بوصفهما مصادر للمـقاومة . فكلاهما يجهله المريض تمامًا ، ولا يمكن أن نفكر فى أيهما عندما نعقد ميثاقنا ؛ بل إنهما لا ينبعثان عن الأنا عند المريض . ويمكن أن ندرجهما كليهما تحت اسم الحاجة إلى المرض أو إلى العذاب ، ولكن مصادرهمـا مختلفة ، وإن كانا ذا طبيعة مـتشابهة . وأول هذين العـاملين هو وجدان الإثم ، أو الشـعور بالإثم كمـا يسمـيه البعض متجاهلين أن المريض لا يستشـعره ولا يعيه . وواضح أنه مستمد من المقاومة التى يبذلها الأنا الأعلى بعد أن أصبح صارمًا قاسيًا بالذات . فيـجب ألا يشفى المـرء ، وأن يظل سقـيمًا ، لأنه لا يستـحق مصـيرًا

أفضل. وإلا تعوق هذه المقاومة منه - عادةً - عملنا العقلى ، ولكنها تجعله عقيمًا. بل كثيرًا ما تسمح بأن تتوقف صورة من الآلام العصابية ، ولكنها سرعان ما تستبدل بها صورة أخرى قد تكون مرضًا عضويًا . ويفسر لنا الشعور بالإثم أيضًا شفاء الأعصبة الخطيرة أو تحسنها الذى نشاهده أحيانًا على أثر ما يحل بالمريض من نكبات واقعية : فالمهم هو أن يشقى المرء ولا عبرة بالوسيلة إلى ذلك . ومما يلفت النظر ، الإذعان الصامت الذى يقابل به أمثال هؤلاء الأشخاص مصيرهم الصعب ، ولكنه أمر ينم عن الكثير . ويجب علينا عند معالجة هذه المقاومة أن نقتصر على الوصول بها إلى الشعور ، وأن نقضى قضاءً بطيئًا على الأنا الأعلى العدائى .

على أننا لا نستطيع بهذه السهولة أن نبرهن على وجود مقاومة أخرى نلفى أنفسنا عاجزين إزاءها . فهناك بعض العصابيين الذين تشير استجاباتهم إلى أن غريزة حفظ الذات فيهم قد انقلبت إلى ضدها ، ويبدو أنهم لا يعنيهم إلا أن يلحقوا بأنفسهم الأذى والخراب . وربما انتمى إلى هذه الطائفة أولئك الذين يقدمون فى النهاية على الانتحار بالفعل . ونحن نفترض أنه قد حدث عند هؤلاء تغيرات غريزية بعيدة المدى ، أدت إلى إطلاق مقادير هائلة من الحافز التدميرى نحو الداخل. ولا يستطيع أمثال أولئك المرضى أن يتحملوا الشفاء عن طريق علاجنا، فهم يعرقلونه بكل الوسائل . ولكن علينا أن نعترف أننا لم نتوصل إلى تفهم هذه الحالات تفهمًا كاملاً .

ولنلق نظرة ثانية على الموقف الذى وصلنا إليه فى محاولاتنا بذل العون للأنا العصابى للمريض . فهذا الأنا لم يعد قادراً على أداء الواجبات التى يفرضها عليه العالم الخارجى بما فيه المجتمع الإنسانى . وقد غابت عنه خبراته الماضية جميعًا ، كما فقد جزءاً كبيراً من ذخيرة ذكرياته . وكف نشاطه بفعل التحريمات الصارمة التى يفرضها الأنا الأعلى ، وتبددت طاقته فى محاولات فاشلة لصد مطالب الهو . كما اختل تنظيمه نتيجة الهجمات المستمرة من الهو ، وانقسم على ذاته من الداخل ، وعجز عن إنجاز أى تركيب صحيح ، ومزقته الميول المتعارضة، والصراعات التى لم تسوّ ، والشكوك التى لم تحل . وفى البداية ندعو ذلك الأنا الضعيف للمريض إلى مشاركتنا فى عمل عقلى خالص هو التفسير ، وذلك لملء الفجوات فى ذخائره النفسية ملأً مؤقتا ، ثم نحوّل إلينا سلطة الأنا الأعلى؛ ونشجع الأنا على الكفاح ضد كل مطلب للهو ، وعلى القضاء على المقاومات التى تظهر عند ذلك . وفى الوقت نفسه ، نعيد النظام إلى الأنا ، وذلك بالكشف عن المضمونات والنزعات التى اقتحمت طريقها إليه من اللاشعور ، ونعرضها للنقد بردها إلى أصلها . ونستطيع أن نسدى العون إلى المريض بأن نقوم بوظائف شتى ، بوصفنا سلطة ، وبديلاً للوالدين ومعلمًا ومربيًا . وأفضل ما يمكن أن نتعلمه من أجله ، أثناء قيامنا بدور المحلل ، وأن نرد المضمونات التى أصبحت لا شعورية مكبوتة إلى حال ما قبل الشعور

ومن ثم نعيدها إلى حـوزة الأنا . أما من ناحية المريض ، فثـمة عوامل عقلية تعمل لمـصالحنا : كحاجته إلى البرء الناشئـة عن آلامه ، وما نثير فيه من اهتمام عقلى بنظريات التحليل النفسى وكشوفه ، وأهم من هذا كله التحويل الإيجـابى نحونا . ومن جهة أخـرى فثمة عـوامل أخرى تعمل ضدنا منهـا التحويل السلبي ، ومـقاومة الكبت التى يبـديها الأنا ، أعنى الألم الناشىء عن العمل المضنى المـفروض عليه ، ووجدان الإثم الناجم عن علاقته بالأنا الأعلى ، والحاجة إلى السقم الناجمة عن تغيرات عميقة فى توزيع طاقته الغريزية . وبناءً على هذين العاملين الأخيرين نستطيع أن نحدد ما إذا كانت حالته بسيطة أم خطيرة .

وبالإضافـة إلى العوامل السابـقة ، هناك عدد من العـوامل الأخرى الجديرة بالذكر ، وبعـضها يعين على تقدم العلاج والبـعض الآخر يعمل على عرقـلته . فمن العـوامل الضارة نمط مـن القصور الذاتى الـنفسى ، وجمـود الليـبيـدو الذى يرفض التخلى عـما يتـشبث به ؛ وتـؤدى قدرة المريض الذاتية على التسـامى بغرائزه دوراً هامًا ، ونظيرها فى ذلك قدرته على الإرتفاع عن مسـتوى الحياة الغـريزية الفجة، وكذلك قدرتـه العقلية النسبـية . فلن يخيب آملنا بـل لنا أن نرضى بالنتيجـة الآتية : وهى أن المصير النهائى للنـضال الذى نخوضه تتوقف على علاقات كمية ، أى على النسبة بين كمية الطاقة التى نسـتطيع أن نعبئها فى المريض لصالحنا ، وكمية طاقة القـوى التى تعمل ضدنا . ومرة أخرى يكون الله ههنا مع

الفرقة الأقوى . ومع أننا لا نبلغ دائمًا النصر ، إلا أننا نستطيع عادة أن نعرف على الأقل السبب فى هزيمتنا . ومن المحتمل أن أولئك الذين لم يتتبعوا أبحاثنا إلا بدافع من الاهتمام بالناحية العلاجية ، سيشيحون بوجوههم عنا احتقاراً بعد هذا الإقرار . ولكن اهتمامنا بالناحية العلاجية هنا قاصر على علاقاتها بالمناهج السيكولوچية ؛ ولا تهمنا حاليًا من أى وجه آخر . وقد نتعلم فى المستقبل كيف نؤثر تأثيراً مباشراً ، بالاستعانة ببعض العقاقير الكيميائية ، فى كميات الطاقة وتوزيعها فى الجهاز النفسى . وربما اكتشفنا إمكانيات علاجية أخرى لم نحلم بها حتى الآن . ولكننا لا نملك فى الوقت الحاضر أفضل من التحليل النفسى ، ولهذا السبب فلا سبيل إلى احتقاره ، مهما كانت إمكانياته محدودة .

الفصل السابع

مثال للعمل التحليلى

كـونّا فكرة عامـة عن الجهـاز النفسى ، والأجـزاء ، والأعضـاء ، والمنظمات التـى يتألف منها ، والقـوة التى تعمل فيـه ، والوظائف التى تؤديها أجزاؤه المختلفة . والأمراض العصابية والذهانية حالات تظهر فيها الاختـلالات الوظيفـية لهذا الجـهاز . وقـد اخترنا الأمـراض العصـابية مـوضوعًا لدراسـتنا لأنها وحـدها هى التى يظهـر أنها تقـبل مناهجنا فى البـحث السـيكولوچى . وعندمـا نحاول أن نؤثر فـيـها ، فـإنا نجـمع ملاحظات توضح لنا تكوينها وطريقة ظهورها .

ولنقدم بذكـر إحدى نتائجنا الرئيـسية . فليـست هناك علل طبيعـية للأمراض العـصابية ، علـى خلاف الأمراض المـعدية مثـلاً ، وعبث أن نبحث فيـها عن عوامل تكوين المرض . وهى تتـصل بالحالة التى تدعى بالسواء بسلـسلة من الحالات الوسطى بينهـما ، ومن الناحيـة الأخرى لا تكاد توجد حالة توصف بالسواء إلا وأمكن أن نتبـين فيها آثاراً عُصابية . فـلا يكاد العُصابيـون يختلفـون عن غـيرهم من الناس فـيمـا لديهم من

استعدادات ، وما يعانون من خبرات ، وما يواجهون من مشاكل تتطلب حلاً . ففيم إذن كانت حياتهم أكثر شقاء وأعظم مشقة ؟ ولم يقاسون خلال ذلك مشاعر الألم والقلق والعذاب أكثر من غيرهم ؟

ولا يصعب علينا أن نجد جوابًا لهذا السؤال . فمرد آلام العصابيين ومتاعبهم إلى إنعدام التناسق من جهة الكم . وعلينا أن نبحث عن العلل التى تحدد الصور المختلفة للحياة النفسية الإنسانية فى التفاعل بين الميول الموروثة والأحداث العارضة . لذا فقد يحدث أن تكون غريزة معينة بالغة القوة أو بالغة الضعف فى الأصل ، أو أن يتوقف نمو مقدرة ما ، أو تنمو نمواً ناقصًا . ومن الناحية الأخرى ، قد يحدث أن تؤثر الانطباعات والأحداث الخارجية تأثيراً يختلف بحسب تكوين الأفراد ، فما يحتمله البعض يجده البعض مهمة بالغة الصعوبة . وهذه الفروق الكمية هى التى تحدد تنوع النتائج .

ولكن سرعان ما نكشف أن هذا التفسير غير كاف ، فهو أعم مما ينبغى له ، وهو يتجاوز فى التفسير نطاقه . فإن العلل المتقدمة تصدق على كل حالات الشقاء والتعاسة والعجز النفسية . ولكن لا يمكن وصف كل حالة من هذا القبيل بأنها عصابية . فللأمراض العصابية سمات معينة، وهى لون خاص من ألوان الشقاء . فعلينا إذن ، بعد كل شىء ، أن نبحث عن علل نوعية لها . أو يمكننا أن نتصور أن من بين المهام التى يتعين على الحياة النفسية القيام بها ، أعمالاً معينة يمكن - على

وجه التخصيص - أن تخفق فيها بسهولة ؛ بحيث يمكن أن تفسر هذه الحقيقة تلك السمة الغريبة الملحوظة غالبًا للظواهر العصابية ، دون أن نضطر إلى العدول عن قضايانا الأولى . وإذا صح أن الأمراض العصابية لا تختلف اختلافًا جوهريًا عن حالات السواء ، فإن دراستها تبشر بزيادة معارفنا عن حالات السواء هذه ، بما تقدم من معلومات قيمة . وقد نتمكن بهذه الطريقة من اكتشاف «نقط الضعف» فى التنظيم السوىّ .

هذا الفرض الذى وضعناه له ما يؤيده . فقد علمتنا تجارب التحليل النفسى أن هناك بالفعل مطلبًا غريزيًا من السهل أن يخفق فى علاجه ما نبذله من مجهود ، أو لا ينال إلا نجاحًا جزئيًا ، وأن هناك مرحلة من الحياة تعد الفترة الوحيدة - أو أهم الفترات - المناسبة لظهور العصاب . هذان العاملان : طبيعة الحافز ومرحلة الحياة المعلومة ، يقتضيان أن ندرسهما منفصلين ، وإن كانا يرتبطان فى أغلب الأحيان .

ونستطيع أن نتكلم بقدر كاف من اليقين عن الدور الذى تؤديه مرحلة الحياة : فيبدو أن الأمراض العصابية لا تكتسب إلا أثناء عهد الطفولة الأولى (حتى سن السادسة) ، وإن كانت أعراضها لا تظهر إلا بعد ذلك بمدة طويلة . وقد يبدو العصاب الطفلى واضحًا فترة قصيرة ، أو قد يمر غير ملحوظ . والمرض العصابى التالى تتبدى - فى كل الحالات - بوادره منذ الطفولة . ولربما شذت عن هذه القاعدة ما يدعى بأعصبة الصدمات (التى يحدثها الهلع المفرط ، والصدمات الجسمية العنيفة

كاصطدام قطار ، أو الانفجارات . . . إلخ) . فعلاقتها بالعامل الطفلى لا تزال تفتقر إلى بحث . ومن اليسير أن نفسر لم تختار الأمراض العصابية عهد الطفولة الأولى موعداً لظهورها . فـالأمراض العصابية - كما نعلم - اضطرابات للأنا ، ولا غـرابة فى أن يفـشل الأنا - إبان ضـعـفه وعـدم نضوجه وعـجزه عـن المقاومـة - فى معالجة المشـاكل التى يستطيع أن يحلهـا فـيمـا بعـد بلا عناء . (وتعـمل المطالب الغـريزية الداخليـة - كالمنبهـات الواردة من العالم الخارجى - عمل «الصدمـات» ولا سيما إذا صادفت أمـزجة معـينة) . ويتقى الأنا العاجـز هذه المشاكل بمـحاولات الهرب (الكبت بأنواعه) التى تغدو فيما بعد عديمة الجدوى فتؤلف عقبات دائمة فى سبيل النمو اللاحق . وقد يبدو أن الضرر الذى يحيق بالأنا من خبراته الأولى كبير إلى حد لا يتناسب معها . ولكن يكفى أن نذكر على سبـيل التمثـيل التباين العظيم بيـن ما تحدثه وخـزات إبرة فى كتلة من الحويصلات الجـرثومية أثناء الانقسام (كمـا فى تجربة رو) والذى تحدثه فى الحيوان كله الذى ينمو منها . ولا ينجـو فرد إنسان من هذه الخبرات الصـادمة ، ولا يفلت أحـد من أنواع الكبت الذى تفـضى إليه . وربمـا كانت هذه الاستجابات الخطيرة من جانب الأنا لابد منها لبلوغ هدف آخر مرتبط بنفس العهد من الحيـاة . وفى خلال سنوات قصار لابد للموجود البدائى الصـغير أن ينمو حـتى يصبح كائنًا إنسـانيًا متحضـرا ، عليه أن يقطع فى فـترة من الزمـن بالغة القـصر - مـعظم الشـوط الذى قطعتـه

الحضارة الإنسانية في تطورها . ويغدو هذا ممكنا بفضل المزاج الوراثى ، ولكنه لا يكاد يتحقق دون العون الإضافى الذى تقـدمه التربية ، أى تأثير الوالدين ، وهذا التأثير يـحدد نشاط الأنا بوصفه مـبشراً بالانا الأعلى من حيث التحريمات والعقوبات ، وييسر الشروع فى أنواع الكبت أو يفرضها . فيجب ألا ننسى إذن أن ندخل تأثير المدنية بين شروط الأعصبة . فإنه يسهل على الهـمجى - كمـا ندرك - أن يكون سويًا ، وهى مهـمة تشق على الإنسان المتـحضر . وقد تبدو لنا الرغبة فى الـحصول على أنا قوى غير مـقيد أمرا مفـهومًا ، ولكن هذا مناف للمدنية بأدق مـعانى الكلمة ، كما يعلمنا الزمن الحاضر . ولما كانت مـطالب المدنية تتمثل فى التربية العائـلية ، فلا يغـيبن عنا أن نـضع بين أصول الأمـراض العصابـية هذه الخاصـة البيولوجيـة للنوع البشرى : أى فتـرة الاعتماد الطويلة فـى عهد الطفولة .

أما فيما يتعلق بـالنقطة الأخرى ، أى العامل الغريزى النوعى ، فإنا نجد هنا تباينا طريفا بـين النظرية والتجربة . فلا اعتـراض - من الناحية النظرية - إذا مـا افتـرضنا أن أى نوع من المطالب الغـريزية أيًا ما كـان يمكنه أن يحدث هذا الكبت نفسه ونتائجه ؛ لكن مشاهداتنا تبين لنا على الدوام - بقدر ما نستطيع أن نحكم - أن التهـيجات التى تقوم بهذا الدور فى تكوين المريض إنما تنشأ من الميول الـغريزية الجزئية المكونة للحياة الجنسـية. ويمكن أن نقول أن أعـراض الأمراض العـصابيـة لا تعدو أن

تكون إشباعًا إبداليًا لحافز جنسى ما ، أو إجراءات للحيلولة دونه ، وهى فى الأغلب والأعم توفيق بين الاثنين ، من ذلك النمط الذى ينشأ طبقًا للقوانين التى تجمع بين الأضداد فى اللاشعور . وليس بوسعنًا حاليًا أن نسد الثغرات فى نظريتنا ، وتزداد صعوبة الحسم نظراً لأن معظم حوافز الحياة الجنسية ليست شهوانية خالصة ، ولكنها تصدر عن أمزجة من الإيروس والمكوّنات الغريزية التدميرية . ولا سبيل إلى الشك فى أن الميول الغريزية التى تفصح عن نفسها إفصاحًا فسيولوچيًا فى الصورة الجنسية تقوم بدور بارز وأعظم مما نتوقع فى إحداث الأمراض العصابية . أما أنها هى العامل الوحيد ، فقول لم يتقرر بعد . ولا يغيبن عنا أنه ما من وظيفة تعرض خلال التطور الحضارى لمثل ما تعرضت له الوظيفة الجنسية بالذات من كبت عنيف واسع النطاق . ولابد للنظرية من أن تقنع بأمور قليلة تكشف عن علاقة أعمق ، أعنى القول بأن العهد الأول للطفولة ، الذى يبدأ الأنا أثناءه فى التفاضل عن الهو ، هو أيضًا عهد الازدهار الجنسى الأول الذى ينتهى بمرحلة الكمون ، وأنه لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة والاتفاق أن تقع هذه الفترة الأولى الهامة فريسة لفقدان الذاكرة الطفلى بعد ذلك ، وأخيراً أن التعديلات البيولوجية فى الحياة الجنسية ، كورودها على موجتين كما أشرنا الآن ، وإنعدام الطابع الموسمى للتهيج الجنسى ، وتحول العلاقة بين الحيض الأنثوى والتهيج الذكرى ، وكل هذه المظاهر المستحدثة فى الجنسية لابد وأن تكون لها أهمية عظمى فى تطور الحيوان إلى النوع الإنسانى . ونترك للعلم فى

المستقبل أن يجمع هذه الحقائق المنفصلة فى فهم جديد . وعلم الأحياء - لا علم النفس - هو المسئول عن هذه الثغرات . وقد لا نعدو الحق حين نقول إن نقطة الضعف فى تنظيم الأنا تنحصر فى سلوكة تجاه الوظيفة الجنسية ، كما لو كان التعارض البيولوچى بين حفظ الذات وحفظ النوع يجد هنا تعبيراً سيكولوچيًا عنه .

ولما كانت التجربة التحليلية قد أقنعتنا بصدق ذلك القول الشائع بأن الطفل أبو الرجل من الناحية السيكولوجية ، وأن خبرات سنيه الأولى لها أبلغ الأثر فى حياته اللاحقة كلها ، فيجب أن نعنى بوجه خاص بالتساؤل عما إذا كان ثمة ما يمكن أن نصفه بأنه الخبرة المركزية فى عهد الطفولة هذا. ويسترعى انتباهنا لأول وهلة أصداء تأثيرات معينة تحدث غالبًا ، كمحاولة الكبار اغتصاب الأطفال ، كالتغرير بهم من قبل أطفال آخرين (أشقاء أو شقيقات) يكبرونهم بقليل ، وأخيراً تلك الخبرة الانفعالية غير المتوقعة ، والتى تنجم عن مشاهدة المباشرة الجنسية بين الراشدين (بين الأبوين) أو السماع بها عرضًا ، ولا سيما فى عهد لا يتطرق فيه إلى ظن أحد أنهم يهتمون فيه بهذه الانطباعات أو يفهمونها أو يستطيعون تذكرها فيما بعد . ومن اليسير أن نقدر مدى ما تبلغه حساسية الطفل عندما تثيرها خبرات من هذا القبيل ، وكيف تندفع حوافزه الجنسية إلى قنوات لا يمكنها أن تبارحها بعد ذلك . ولما كانت هذه الخبرات الانفعالية تكبت إما مباشرة أو حين تعود فى شكل ذكريات ، فإنها تمهد للقهر العصابى

، الذى يحول فيما بعد بين الأنا والسيطرة على الوظيفة الجنسية ، وربما أدّى به إلى العزوف نهائيًا عن تلك الوظيفة . والحالة الأخيرة تفضى إلى العصاب ، ولكن إذا لم يحدث هذا العصاب ، فستنشأ انحرافات جنسية عديدة ، أو قد تتقوض الوظيفة ذاتها ، على مالها من أهمية عظمى فى التناسل وفى سيرة الحياة بأكملها .

ومهما عظم مغزى هذه الحالات ، فإن هناك موقفا آخر أجدر منها بإثارة اهتمامنا ، موقفًا قُدِّر على كل طفل أن يمر به ، وينتج بالضرورة من فترة الاعتماد المديدة فى طفولته ، وعن حياته مع أبويه - وأعنى به عقدة أوديب التى أطلق عليها هذا الاسم لأن مضمونها الجوهرى موجود فى الأسطورة اليونانية «أوديب ملكًا» التى أبقى عليها من الاندثار - لحسن الحظ - مؤلف مسرحى كبير[1] . فقد قتل البطل اليونانى أباه وتزوج أمه. حقيقة إنه فعل هذا دون علم منه . إذ أنه كان يجهل أن الأمر يتعلق بوالديه ، ولكن هذا تحريف للمضمون التحليلى ليس من العسير فهمه ولم يكن منه مناص .

ويتعين علينا الآن أن نورد بيانًا مستقلاً عن كل من الصبيان والبنات (الرجال والنساء) فى تطورهم ، حيث نصادف لأول مرة تعبيرا نفسيًا عن الاختلاف بين الجنسين . وهنا يقابلنا لغز مستغلق فى المشكلة التى

---

(١) [سوفوكليس] - (المترجمان) .

تضعـها واقـعة بيولوجـية ، نعنى واقـعة وجود جنسـين . وعندها تقف معـارفنا ، إذ لا نستطيع أن نردها إلـى شىء آخر . ولم يسهم التـحليل النفسى فى حل هذه المشكلة ، إذ لا شك فى أنها من صميم علم الأحياء . أما فى الحيـاة النفسية ، فلا نجد إلا الأصـداء لذلك التباين العظيم ، وتصطدم تفسيـراتنا بصعوبة ما فتـئنا منذ عهد بعيد نحـدس سرها . فإن الفـرد لا يقتصـر على أن ينتـحى منحى جنسه هو ، بل ويقـبل أيضا آن ينتحى - إلى حد ما - مناحى الجنس الآخر ، مثلما يحتفظ جسمه ببقايا الأعضاء الجنسيـة الناقصة النمو والعديمة النفع غـالبًا ، الخاصة بالجنس الآخر إلى جانب الأعضاء الجنسية التامة النمو الخاصة بجنسه هو . ولكى نميز من الناحيـة النفسية بين ما هو مذكر وما هو مـؤنث ، نعادل معادلة ينقصها التمحيص العلمى بـلا شك : نعادل بين الذكورة والقوة والفعالية ، وبين الأنوثة والضعف والسلبية . وتقف الثنائية الجنسـية النفسية حجر عثرة فى أبحاثنا، وتزيد الوصف مشقة .

وأول موضوع شهوانى عند الطفل هو ثدى أمه الذى يغذيه ، ويتصل الحب فى بدايته بإشـباع الحاجـة إلى الطعام . ولا يمـيز الطفل قطعًا فى البداية بين الثدى وجسمه هو . وإذ يتبـين أن هذا الثدى يغيب عنه كثيرا ، فإنه يميز بيـنه وبين جسمه ، ويعتبره خـارجًا عنه . وهنا يصبح الثدى «موضوعًا» محـملاً بجزء من الـشحنة النرجسـية الأولية . ويـكتمل هذا الموضوع الأول فيـما بعد فيصبح شخـص الأم كله . وهذه الأم لا تقتصر

على إطعامه فحسب ، بل وتعنى به أيضًا فتثير فيه إحساسات جسمية بعضها لاذّ وبعضها مؤلم . وتغدو أول مغوية للطفل - لعنايتها بجسمه. وبفضل هاتين العلاقتين ، تنال الأم أهمية فريدة لا تضارع ولا تتغير ولا تزول مدى الحياة ، وتصبح - عند الجنسين على السواء - موضوع أول حب وأقواه ، ونموذجًا لكل علاقات الحب اللاحقة . وللأساس المستمد من تاريخ السلالة البشرية أهمية تفوق الخبرة الشخصية العارضة ، بحيث يستوى أن يرضع الطفل من الثدى فعلاً ، أو أن يربّى على البزازة محرومًا من رعاية الأم وحنانها . والتطور واحد فى الحالتين . وقد يحدث فى الحالة الأخيرة أن يقوى حنينه فيما بعد . أما فى الحالة الأولى ، فمهما طال أمد رضاعة الطفل من ثدى أمه ، فسيظل دائمًا -بعد الفطام- موقناً بأنها كانت فترة شحيحة بالغة القصر .

ولا تخلو هذه المقدمة من الفائدة ، فهى تعدنا لفهم شدة وطأة عقدة أوديب . فعندما يدخل الطفل الذكر (بين سنتيه الثانية والثالثة) المرحلة القضيبية من تطوره الليبيدى ، ويستشعر أحاسيس اللذة فى عضوه الجنسى، ويتعلم كيف يحصل عليها وفق هواه بالاستثارة اليدوية - حينئذ يصبح حبيبًا لأمه ويتمنى أن تكون له جسديًا على النحو الذى استنتجه من مشاهداته وتخميناته عن الحياة الجنسية . ويحاول أن يغويها بأن يعرض أمامها قضيبه الذى تفعمه حيازته إيّاه فخرًا . وبعبارة موجزة - فإن ذكورته المبكرة الاستيقاظ تحمله على السعى للحلول لديها محل أبيه ، فقد ظل

أبوه حتى الآن نموذجًا يتطلع إليه بعين الحسد ، للقوة الجسدية التى يبديها ، والسلطان الذى يخف به . أما الآن فقد غدا أبوه منافسًا يقف فى طريقه ، ويريد أن يبعده عن الطريق . وعندما يتاح له إبان غيبة أبيه أن يشاطر أمه الفراش ، وعندما يقضى عنه ثانية عند عودة أبيه ، فإنه يشعر شعوراً عميقًا بالرضى عند غيبة أبيه . والسخط عند عودته . هذا هو مضمون عقدة أوديب التى نقلتها الأسطورة اليونانية من عالم تخيلات الطفولة إلى عالم الواقع المزعوم . وتدخر حضارتنا الراهنة لهذه العقدة نهاية رهيبة .

وتفهم الأم حق الفهم أن تهيّج الطفل الجنسى منصب عليها . ولا تلبث أن تقرر الأم أن من الخطأ أن تترك له الحبل على الغارب . فهى تعتقد أنها تحسن صنعًا عندما تمنعه من اللعب اليدوى بعضوه . على أن هذا التحريم لا يحدث أثراً كبيراً ولا يؤدى على أكثر تقدير - إلا إلى تعديل فى طريقته للحصول على الإشباع الذاتى . وأخيراً تلجأ أمه إلى أعنف الإجراءات - فتهدده بأن تسلبه ذلك الشىء الذى يتحداها به ، ولكى تجعل التهديد أكثر وقعًا وأقرب إلى التصديق ، تعلن عادة أنها ستكل التنفيذ إلى الأب ، وتقول إنها ستخبره حتى يقوم ببتر القضيب . والغريب حقًا أن هذا التهديد لا يحدث أثره إلا إذا تحقق شرط آخر إما قبله أو بعده ، أما التهديد فى حد ذاته ، فلا يصدقه الطفل ، ولا يتصور إمكان حدوث مثل هذه العقوبة . ولكنه إذا تذكر - أثناء التهديد - منظر

الأعضاء التناسلية الأنثوية ، أو إذا اختلس - بعد مثل هذا التهديد بقليل- نظرة إلى تلك الأعضاء التى ينقصها بالفعل ذلك الجزء القيم ، حينئذ يصدق جدية التهديد الذى سمعه ، فيقع تحت تأثير عقدة الخصاء ، ويعانى أقسى صدمة فى حياته المبكرة[1] .

وآثار التهديد بالخصاء عديدة لا تحصى ، فإنها تؤثر فى علاقات الولد بأبيه وأمه ، وبالتالى فى علاقاته بالرجال والنساء عامة . وتعجز ذكورة الطفل عادة عن احتمال هذه الصدمة الأولى . ولكى يبقى على أعضائه التناسلية ، يتجاوز عن امتلاك أمه تجاوزا يكاد يكون تامًا ، وغالبًا ما تظل حياته الجنسية ترزح دائمًا تحت وطأة التحريم . وإذا كان لديه ما نسميه مقومًا أنثويًا قويًا ، فإنه يزداد بالتهديد الموجّه إلى ذكورته . فينحدر إلى موقف سلبى تجاه أبيه ، يماثل الموقف الذى ينسبه إلى

(١) الخصاء موجود أيضًا فى أسطورة أوديب ، فليس العمى الذى عاقب أوديب نفسه به بعد اكتشاف جريمته إلا بديلاً رمزيًا للخصاء كما تدل شواهد الأحلام ، ولا تستبعد أن يكون الفزع الخارق الذى يبعثه هذا التهديد ، راجعًا إلى أثر فى الذاكرة من تاريخ السلالة البشرية ومن مخلفات حقبة قبل التاريخ كان الأب الغيور فيها يسلب ابنه بالفعل أعضاءه التناسلية عندما يعتبر غريمًا فى امرأة . وهناك عادة بدائية أخرى هى الختان - وهو بديل رمزى آخر للخصاء - لا يمكن أن نفهمها إلا بوصفها تعبيرًا عن الخضوع لإرادة الأب (قارن طقوس البلوغ لدى البدائيين) . ولم تدرس بعد الأشكال التى تتخذها هذه الوقائع التى نحن بصددها عند الشعوب والمدنيات التى لا تقمع الاستمناء عند الأطفال .

أمه. وهو إن كان قد أقلع من الاستمناء نتيجة للتهديد ، فإنه لم يقلع عن التخيلات التى تصاحبه . بل على الضد . لما كانت الآن هى كل ما تبقى لديه من صور الإشباع الجنسى ، فإنه يزاولها أكثر من ذى قبل ، وإذ يمضى - فى هذه التخيلات - يتوحد بأبيه كما كان يفعل من قبل ، فإنه يتوحد بأمه ، بل قد يكون هذا التوحد الأخير هو الأغلب . وتتسلل مشتقات هذه التخيلات الاستمنائية الأولى ونتائجها المعدلة إلى نطاق الأنا لديه ، وتسهم فى تكوين خلقه . وفضلاً عن إذكاء أنوثته ، يزداد قلقه من أبيه وتعظم كراهيته له احتداماً . وتنحسر ذكورة الطفل بما يشبه التمرد على أبيه ، وهذا يؤثر حتماً فى سلوكه اللاحق فى المجتمع الإنسانى ، وكثيراً ما تظل بقية من تشبثه الشهوانى بأمه - فى صورة إفراط فى الاعتماد عليها ، ويدوم هذا فى صورة موقف الخنوع تجاه النساء ولا يغامر بعد ذلك بعشق أمه ، ولكنه لا يجسر على احتمال فقدان محبتها له ، وإلا ظل فى هذه الحالة مهدداً بوشايتها به عند أبيه ، ومعرضا للخصاء ، وتتعرض التجربة كلها ، بكل مقدماتها ونتائجها التى لم تستطع أن نذكر منها إلا القليل ، لكبت قوى عال . وبفضل القوانين التى يخضع لها الهو اللاشعورى ؛ يتسنى لكل الحوافز الانفعالية والاستجابات المتناقضة التى تنشط آنذاك - أن تبقى فى اللاشعور وتكون على أهبة لتعطيل النمو اللاحق للأنا بعد البلوغ . وعندما تبعث العملية الجسمية للنضوج الجنسى حياة جديدة في التشبيتات الليبيدية القديمة التى

نبذت فى الظاهر ، تبدو الحياة الجنسية معطلة ، خلواً من الوحدة ، مبددة بين حوافز متصارعة .

ولا شك فى أن تدخل التهديد بالخصاء لا يفضى دائمًا إلى هذه النتائج الرهيبة فى الحياة الجنسية المتفتحة لدى الصبى . وهنا أيضًا يتوقف مبلغ الضرر الحادث والضرر الذى يمكن تفاديه على علاقات كمية . ويمكننا أيضًا أن نعتبر هذه الأحداث الخبرة الرئيسية لسنى الطفولة ، وأخطر مشاكل العهد الأول فى الحياة ، وأقوى مصدر لاضطراب السلوك فى المستقبل . وهى تنسى نسيانًا عميقًا بحيث تصطدم استعادتها - فى عملية التحليل - بإنكار قاطع من قبل اللاشعور . وانفصالها عنه يبلغ حداً يجعل المرء يمتنع عن ذكر هذا الموضوع المحرّم ، ويغشى على بصيرته فلا يتبين أوضح شواهده . فيعترض مثلاً بأن أسطورة «أوديب ملكًا» لا تمت فى الواقع بصلة إلى الاستنتاج الذى توصلنا إليه بالتحليل ، فهى شىء جد مختلف ، فأوديب لم يكن يعرف أنه قتل أباه وأنه تزوج أمه ولكن يجب ألا يغيب عنا أن تحريفًا كهذا لم يكن منه بد عند محاولة صياغة الموضوع صياغة شعورية ، وأنه ليس ثمة عناصر دخيلة ، بل معالجة بارعة للعناصر الموجودة فى الموضوع . فجهل أوديب تصوير مشروع لحالة اللاشعور التى انحدرت إليها التجربة بتمامها عند البالغين ؛ وحكم النبوءة الذى يبرىء البطل أو يجب أن يبرئه اعتراف بالقدر الذى لا مفر منه والذى يفرض على الأبناء جميعًا أن يمروا بعقدة أوديب . كذلك أشار بعض المشتغلين بالتحليل النفسى إلى أنه يمكن حل لغز

شخصية شعرية أخرى ، نعنى هملت ، ذاك البطل المتردد ، الذى خلقه شكسبير من بعد ، برده إلى عقدة أوديب . فقد أحجم الأمير عن توقيع العقوبة على شخص آخر من أجل عمل يطابق جوهر رغباته الأوديبية . ويبين استعصاء هذه المسرحية على الفهم فى عالم الأدب مبلغ تشبث الإنسان بكبته الطفلى[1] .

ومع ذلك فقد استطاع الفيلسوف الفرنسى ديدروه ، قبل ميلاد التحليل النفسى بأكثر من قرن ، أن يوضح أهمية عقد أوديب ، وهو بصدد بيان الفرق بين العالم البدائى والعالم المتحضر فى العبارة التالية :

«لو ترك الهمجى الصغير وشأنه ، واحتفظ بكل حماقته ، وجمع بين ضعف إدراك الطفل فى المهد ، وعنف شهوات رجل الثلاثين ، إذن لدق عنق أبيه وضاجع أمه»[2] .

ويحق لى أن أقول إنه لو لم يكن للتحليل النفسى إلا فخر اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة ، لكان ذلك وحده خليقًا بأن ينظمه فى عداد أثمن ما كسب الجنس الإنسانى حديثًا .

---

(١) يغلب على الظن أن (وليم شكسبير) اسم مستعار يستتر خلفه عظيم مجهول : وقد حدث لإدوارد دى فير ، ايرل أوف أكسفورد ، الذى اعتبر صاحب مؤلفات شكسبير ، أن فقد أباه الذى يحبه ويعجب به وهو لا يزال صبيًا ، وانفصل عن والدته التى ارتبطت بزيجة جديدة ، بعد وفاة زوجها بقليل .

(٢) [بالفرنسية فى النص الألمانى] (المترجمان) .

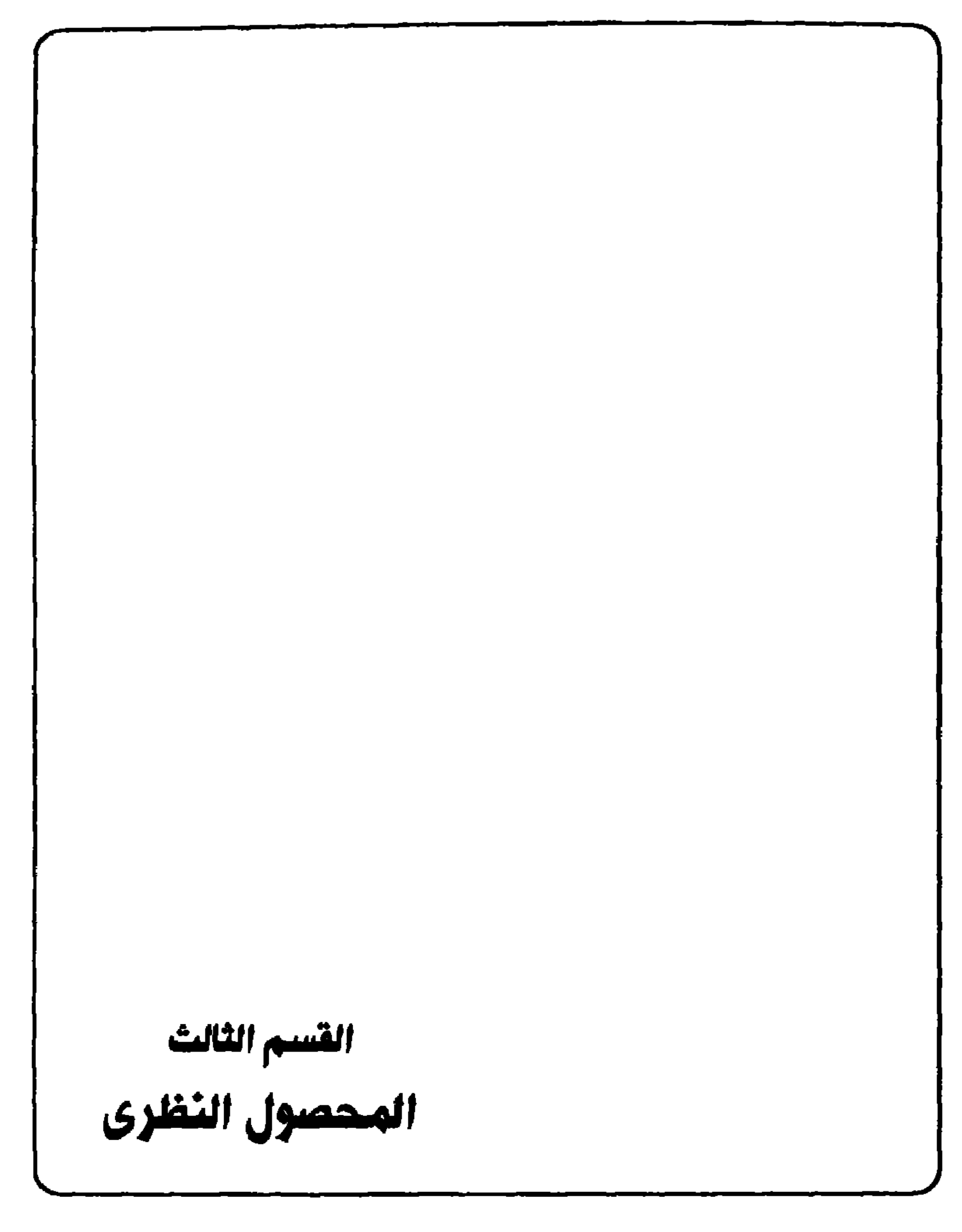
أما عند البنات ، فآثار عـقدة الخصاء أكثـر انتظاما ، ولكنها ليست أقل عمقًا . ولا لحاجـة بالطفلة ، بطبيعة الحال ، إلى الخـسوف من فقد القضـيب ؛ ومع ذلك فلابد من أن تتأثـر من كونها لم تحـصل عليه . وهى تحسـد الصبيان مـنذ البداية على حيـازتهم إياه ، ويمكن القول إن تطور حـياتهـا بأسرها خـاضع للحسـد من القضـيب . وتبدأ بأن تـبذل محاولات فاشلة للقيام بما يقـوم الصبيان به ، وبعد ذلك يزداد حظها من النجاح لـلتعويض عن هذا النـقص ، وتؤدى هذه المحاولات فى الـنهاية إلى إتجاه أنـثوى سوىّ . وعندمـا تحاول أثناء المـرحلة القضـيبـية أن تحصل على اللذة -شأن الصبى - بإثارة أعـضائها التناسلية إثارة يدوية ، فغالبًا مـا لا تحصل على إشباع كافٍ ، فيـمتد شعور النقص من قضـيها المنقوص إلى شخصها بأسـره ، وهى تقلع عادة عن الاستمناء ، لأنها لا تحب أن يذكرها هذا بتـفوق أخيهـا أو رفيقهـا فى اللعب ، وتعزف عن الحياة الجنسية عزوفًا تامًا.

وإذا تشبـثت البنت برغبتـها الأولى فى أن تصبح غـلاما ، فإن هذا ينتهي بها فى الحالات المتطرفة إلى أن تعشق النساء ، فتتسم فى سلوكها وفى حيـاتها اللاحقـة بسمـات الذكورة ، وتزاول إحدى مـهن الرجال ، وهلم جـراً . أما الـطريق الآخر فـيـفضى إلى هجـران الأم التى كـانت تحبـها: ذلك بأن البنت قـد نال منها الحـسد من القضـيب كل منال لا يمكنها أن تغفر لأمها أنها بعثت بها إلى العالـم غير مجهزة تجهيزا كافيً . وفى سخطهـا ذاك ، تهجر أمهـا وتتخذ بدلاً منها مـوضوعًا لمحبـتها شخصًا آخر هو أبوها . وعنـدما يفقد الإنسان موضوع حـبه فإن الموقف

الطبيعى هو أن يتوحد فى ذاته بهذا الموضوع ، وهنا تغدو هذه العملية عونًا للبنت الصغيرة. فيحل توحدها بأمها محل تعلقها بها . فتضع البنت نفسها موضع أمها - كما كانت تفعل دائمًا فى ألعابها ، وتحاول أن تأخذ محل أمها تجاه أبيها فتبغض أمها التى كانت تحبها حتى ذلك الوقت ، وذلك لسببين : الغيرة والضغينة التى أثارها حرمانها من القضيب . وقد تنشأ علاقتها الجديدة مع أبيها بادىء ذى بدء على أساس رغبتها فى أن تستأثر بقضيبه ، ولكنها تسفر عن رغبة أخرى - هى إنجاب طفل هدية منه . وتحل الرغبة فى الوليد محل الرغبة فى القضيب ، أو تتفرع عنها على الأقل .

ومن الشيق أن العلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء عند الذكور، مختلفة جدّ الاختلاف بل تناقض ما هى عليه عند الإناث. فلدى الذكر يفضى تهديد الخصاء- كما رأينا - إلى نهاية عقدة أوديب؛ وعلى الضد، نجد لدى الأنثى أن ما يدفعها إلى عقدة أوديب عطلها عن القضيب. ولا يضر المرأة كثيراً أن تبقى فى موقعها الأوديبى الأنثوى. (وقد اقترح أن يسمى «عقدة الكترا») . فهى تختار إذ ذاك رجلاً لما تجد فيه من خصال أبيها، وترضى بسلطته. أما ظموها الذى لا يرتوى إلى امتلاك القضيب، فيمكن إشباعه إذا أفلحت فى تحويل شغفها بالعضو إلى شغف الرجل الذى يحمله، مثلما انتقلت من قبل من ثدى أمها إلى أمها بأكملها .

وإذا ما ساء لنا خبرة المحلل : أى المركبات النفسية يراها على ضوء تجربته أكثر امتناعًا على التحليل ، لكانت الإجابة : لدى المرأة الرغبة فى القضيب ، ولدى الرجل الموقف الأنثوى تجاه جنسه الذى يستلزم فقدان القضيب .



القسم الثالث

المحصول النظرى

الفصل الثامن

الجهاز النفسى والعالم الخارجى

من البين أن كل الآراء والفـروض العامة التى وضـعناها فى الفصل الأول ، توصلنا إليـها بعمل صـعب عسيـر أوردنا مثالاً لـــه فى القسم السابق . وذلك ما يغرينا الآن باستعراض مـا أضافه إلى معرفتنا مثل هذا العمل ومعـرفة آى طرق للبحث المسـتقبل قد فتحنـاها أمامنا . وهنا قد نعجب لأننا اضطررنا فى أغـلب الأحيان إلى المضى إلى مـا وراء حدود علم النفس . فـإن الظواهر التى تناولناها بالدرس لا تتـصل بعلم النفس وحده ، بل إن لها أيضًا جانبًا عضويًا بيـولوجيًا ؛ ومن ثمة فقد تأدينا ، ونحن نجهد فى بناء التحليل النفسى ، إلى كشوف بيولوجية هامة ، ولم نحجم عن تكوين فروض بيولوجية جديدة .

ولكن فلنقتصر باديء ذى بدء على علم النفس . فقد اكتشفنا أن من المحـال علميًا أن نضع خطًا فـاصلاً بين مـا هو سوىّ ومـا هو شاذ من الناحية النفـسية ، بحيث لا يكون لهذا التمـييز إلا قيمة اعـتبارية ، رغم أهميته العملية . وبذلك أثبتنا حقنا فى تفهم الحياة النفسية السوية بدراسة

اضطراباتها ، وهذا لا يتيسر إذا كانت هذه الأحوال المرضية من أعصبة وذهانات لها علل نوعية على نمط الأجسام الغريبة .

وقد ساعدتنا دراسة الاختلاط النفسي الذى يحدث أثناء النوم ، وهو حالة عابرة لا ضرر منها بل وتقوم بوظيفة نافعة ، فمكنتنا من فهم الأمراض النفسية وهى أحوال دائمة تقوض حياة المريض . ويحق لنا الآن أن نقرر أن سيكولوجية الشعور لم تكن أقدر على فهم العمليات السويّة للنفس منها على فهم الحلم . ولقد قام الدليل دائمًا على أن وقائع الإدراك الشعورى للذات، وهي التي لم نكن نملك سواها ما تقصر دائماً عن الإحاطة بتعدد العمليات النفسية وتعقدها ، وعن كشف علاقاتها المتبادلة ، وبالتالى عن التوصل إلى تحديد شروط اضطرابها .

ولقد ذهبنا إلى فرض وجود جهاز نفسى ، ممتد فى المكان ، ومركب تركيبًا مناسبًا ، وينمو وفقًا لمقتضيات الحياة ، ولا تبدو فيه ظواهر الشعور، إلا عند نقطة خاصة ، وفى ظروف معينة . وقد أتاح لنا هذا الفرض أن نقيم علم النفس على أسس مشابهة لما قامت عليه العلوم الأخرى ، كالفيزيقا مثلاً ، ونجد أن المهمة ههنا لا تختلف عنها فى العلوم الأخرى: فوراء إدراكنا للخصائص المباشرة (الكيفيات) لموضوع البحث علينا أن نكتشف شيئًا أدق مما تدركه حواسنا وأقرب إلى ما يمكن أن يكون واقع الأشياء . ولا أمل لنا فى بلوغ الواقع ذاته ، إذ أن من الواضح أن كل جديد نستنتجه يجب أن يترجم ثانية إلى لغة مدركاتنا الحسية التى يستحيل علينا أن نتحرر منها . ولكن ذلك بالذات هو طبيعة

علمنا وحدوده . ويبدو الأمر كما لو كنا نقول فى الفيزيقا مثلا ، لو استطعنا أن نرى بوضوح كافٍ لأدركنا أن ما يظهر لنا موضوعا صلبًا يتكون فى الحقيقة من جسيمات ذات شكل معين وأحجام معينة ووضع معين . ومن هنا نحاول أن نزيد من مقدرة أعضائنا الحسية ما أمكننا بوسائل صناعية ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الجهود تخفق فى بلوغ النتيجة النهائية وسيظل الواقع «مستعصيًا على الإدراك أبدًا» . وكل ما يفيده البحث العلمى من إدراكاتنا الحسية الأولية هو الكشف عن الروابط والعلاقات الموجودة فى العالم الخارجى ، والتى يمكن أن نمثلها ونستعيدها فى عالمنا الفكرى الداخلى ، وتعيننا معرفتها على «فهم» بعض ظواهر العالم الخارجى والتنبؤ بها ، وتغييرها إن أمكن . وهذا علي التحديد ما نعمله فى التحليل النفسى ، فقد اكتشفنا طريقة فنية مكنتنا من ملء الثغرات فى ظواهر الشعور ، ونحن نستعين بها كما يستعين عالم الفيزيقا بالتجريد . وبهذه الطريقة استنتجنا عددًا من العمليات التى لا سبيل إلى إدراكها فى ذاتها وبذاتها ، وأضفناها إلى العمليات التى ندركها . وحينما نقول مثلاً : «هنا تسلك ذكرى لا شعورية» فإن هذا معناه «هنا عرض أمر لا يمكن أن نتصوره ، ولكنه لا يمكن ، إذا بلغ شعورنا ، إلا أن يوصف بأنه كذا وكذا» .

ولا شك أن حقنا فيما ذهبنا إليه من نتائج وتعميمات ومدى درجة اليقين فيها ، سيبقى عرضة للنقد فى كل مثال ، وعلينا أن نعترف بأنه

كثيراً ما يتعذر علينا أن نحسم في الأمر ، مما كان سببًا فى تعدد آراء كثير من المحللين . ولا شك أن جدة المشكلة ، ومن قلة التدريب ، مسئولة عن هذا إلى حد ما ، غير أن ثمة عاملاً خاصًا يرجع إلى طبيعة الموضوع ذاته ، إذ تختلف الموضوعات فى علم النفس عنها فى علم الطبيعة ، لأنها لا تقتصر على إثارة اهتمام علمى بالغ . فلا عجب إذن أن نجد محللة لم تكن قد اقتنعت اقتناعًا كافيًا بشدة رغبتها فى القضيب ، تخفق فى تبين أهمية هذا العامل عند مرضاها . ولكن مصادر الأخطاء الناشئة عن المعادلة الشخصية ليست لها أهمية كبيرة فى نهاية الأمر . وعندما نتصفح المراجع القديمة فى استخدام الميكروسكوب ، نعجب - والطريقة ما تزال ناشئة - لما كان يشترط فى شخصية الملاحظ الذى يستخدم الجهاز من شروط . ولا نجد من هذا الآن شيئًا .

ولا يسعنا فى هذا المقام أن نحاول تصوير الجهاز النفسى ووظائفه تصويراً كاملاً . ولو فعلنا لحال دون ذلك أن التحليل النفسى لم يتسع له حتى الآن أن يدرس هذه الوظائف جميعًا على السواء ، فلنكتف إذن بتخليص وافٍ لنتائجنا فى جزئنا التمهيدى .

يتألف لب وجودنا إذن من «الهو» المعتم ، الذى لا علاقة مباشرة له بالعالم الخارجى ، بل إنه لا يعرض لمعرفتنا إلا بواسطة منظمة نفسية أخرى . وفى هذا الهو ، تعمل الغرائز العضوية التى تتكون ذاتها من امتزاج قوتين أوليتين (الإروس والتدمير) بنسب متفاوتة . وتتفاضل

إحداهما عن الأخرى من خلال علاقتها بالأعضاء أو بمجموعات الأعضاء. وهم هذه الغرائز الأول هو الحصول على الإشباع الذى تترقبه عن طريق تغييرات الأعضاء بمساعدة موضوعات العالم الخارجى . وإشباع الغرائز إشباعًا عاجلاً مطلقًا ، كما يشتهى الهو ، يفضى إلي صراع خطر مع العالم الخارجى ويؤدى إلى الدمار . ولا يحفل الهو بما يكفل المستقبل ، ولا يعتوره القلق ، وربما كان الأصح أن نقول إن الهو ، وإن كان يساهم فى العناصر الحسية للقلق ، إلا أنه لا يستغلها . وتختلف العمليات التى تقع لهذه العناصر النفسية الهو أو تقع فيما بينها «العمليات الأولية» اختلافًا كبيراً عن العمليات المألوفة لنا بالإدراك الشعورى فى حياتنا الانفعالية والإدراكية . ولا تخضع لما يفرضه المنطق من قيود النقد ، إذ ينبذ المنطق بعض هذه العمليات بوصفها باطلة ، بل وقد يسعى إلى القضاء عليها .

ولما كان الهو بمنأى عن العالم الخارجى ، كان له عالمه الخاص من الإدراك الحسى . فهو يلمس بدقة بالغة بعض التغيرات التى تطرأ عليه من الداخل ، ولا سيما تذبذب التوتر فى حاجاته الغريزية ، وهو تذبذب يستشعر فى أحاسيس توالى اللذة والألم . ولا شك أن من الصعب تعيين الأعضاء الحسية الطرفية التى تسلكها وتصدر عنها هذ الأحاسيس . ولكن الذى لا شك فيه أن الإدراكات الحسية الذاتية ، أى المشاعر الحشوية ومشاعر اللذة والألم ، تستبد بالسيطرة على أحداث الهو

. فالهو يخضع لمبدأ اللذة الذى لا مفر منه . ولكنه لا ينفرد بذلك ، إذ يبدو أن نشاط المنظمات النفسية الأخرى يتجه إلى تعديل مبدأ اللذة فحسب ، ولكنه لا يملك القضاء عليه ، وهنا تجابهنا مسألة نظرية على جانب كبير من الأهمية ولم تجد لها جوابًا بعد وهى : متى وكيف يمكن التغلب على مبدأ اللذة ؟ وإن اعتبار أن مبدأ اللذة يقتضى خفض توترات الحاجات الغريزية، بل والقضاء عليها فى نهاية الأمر (النرفانا) يؤدى بنا إلى العلاقات التى لم تقدّر بعد والتى تربط مبدأ اللذة بالقوتين الأوليتين : الإروس وغريزة الموت .

أما المنظمة النفسية الأخري ، نعنى الأنا ، فنعتقد أننا نعرفها معرفة أفضل ، كما أنا نستبين فيها أنفسنا فى يسر . وقد تكونت هذه المنظمة من الطبقة اللحائية للهو ، فكانت متصلة اتصالاً مباشرًا بالعالم الخارجى (الواقع) حيث قد تم إعدادها لتلقى التنبهات واستبعادها . ويبدأ الأنا من الإدراك الحسى الشعورى ، ثم يوسع نطاقه ويمده إلى طبقات أعمق فأعمق من الهو . وفى اعتماده علي العالم الخارجى ، إشارة إلى أصله الذى لا يمحى (من قبيل : صنع فى آلمانيا مثلاً)[1] . وتنحصر وظيفته النفسية فى الارتقاء بالعمليات التى تجرى فى الهو إلى مستوى دينامى أعلى (وربما كان ذلك بتحويل الطاقة المتحركة الحرة إلى طاقة مقيدة تقابلها الحالة القبلشعورية) . وتنحصر وظيفته الإنشائية فى وضعه . بين

---

(١) [بالإنجليزية فى الأصل] (المترجمان) .

المطلب الغريزى والفعل الذى يشبعه ، نشاطا ذهنيًا يسعى إلى التنبؤ بنتيجة المحاولات المقصودة على ضوء الحاضر واستغلال الخبرات السابقة . وعلى هذا النحو يصل الأنا إلى تقرير ما إذا كان ينبغى المضى فى محاولة الإشباع أم إرجاؤها أم القضاء كلية على مطلب الغريزة بمثابته خطرًا (مبدأ الواقع) . وكما أن الهو لا يستهدف إلا الحصول على اللذة ، فإن الأنا لا يعنى إلا بتوفير الطمأنينة . فقد أخذ الأنا على عاتقه مهمة حفظ الذات ، تلك المهمة التى يبدو أن الهو قد أهملها . ويستخدم أحاسيس القلق نذيراً بالأخطار التى تتهدد تكامله . ولما كان يمكن للذكريات أن تصبح شعورية فى صورة إدراكات حسية ، ولا سيما لإرتباطها بالبواقى اللفظية ، قام احتمال خلط يؤدى إلى سوء إدراك للواقع. ويقى الأنا ذاته منه عن طريق إيجاد اختبار الواقع ، الذى فشل فى الحلم – حتمًا – بسبب ظروف حالة النوم . والأخطار التى تتهدد الأنا والتى يتعين عليه مقاومتها فى محيط من القوى الآلية الطاغية ، تأتى أولاً من الواقع الخارجى ، ولكنها لا تقتصر عليه . فالهو ذاته مصدر أخطار مماثلة ، ومرجع هذا فى الواقع إلى سببين:

أولاً : أنه يمكن لقوة غريزية بالغة العنف أن تلحق بالأنا من الأذى ما يلحقه به «منبه» بالغ القوة من العالم الخارجى . صحيح أن هذه القوة البالغة لا يمكن أن تدمره ؛ وإن كان يمكن أن تدمر تنظيمه الدينامى الخاص به ، وأن تحيل الأنا ثانية إلى جزء من الهو .

وثانيًا : أن الأنا تعلم بالتجربة أن إشبـاع مطلب غريزى محتمل فى حد ذاته قد يسبب أخطاراً فى العـالم الخارجى ، بحيث يصبح أى مطلب غريزى من هذا النوع خطراً فى حد ذاته ، وبذا يحارب الأنا فـى جبهتين : فعليـه أن يدافع عن وجوده ضد عـالم خارجى يهـدده بالإفناء ، وضد عالم داخلى يرهقه بالمطالب . ويستخـدم الأنا طرقاً متماثلة فى وقاية ذاته من عدويه ، وإن كان دفاعه ضد العدو الداخلى غير كافٍ خاصة . ونظراً لوحدة الأصل واشـتراكهـما الوثيق فى الحيـاة فيما بعـد ، فمن العسـير الهـرب من الأخطار الداخليـة . فهـى تظل تتهـدده ، حـتى وإن أمكن تقييدها وقتًا ما .

رأينا كـيف أن الأنا الضعـيف ناقص النمو فى عـهد الطفـولة الأول يصاب بأضرار مسـتديمة بما يبذل من مجهـود لدرء الأخطار الخاصة بهذا العهـد عن الحياة . ويحـتمى الطفل من الأخطار التى تتهـدده فى العالم الخارجى بمـا يلقى من والديه من رعاية ، ويدفع ثمن هذه الطـمأنينة قلقًا من فقدان الحب يسلمه إلى العجـز تجاه أخطار العالم الخارجى . ويؤثر هذا العامل تأثيراً حاسمًا فى نتيجة الصراع حين يدلف الصبى إلى الموقف الأوديبى ، حيث يستحوذ عليه تهديـد الخصاء الذى ينال من نرجسته بعد أن يكون قد تعزز بمصادر سالفة . ويتضافر هذان التأثيران : تأثير الخطر الواقع المـباشـر ، وتأثير الخطر الذى يرجع أسـاسه إلى تاريخ السـلالة الإنسانية ويُدّخر فى الذاكـرة ، فيبعثان الطفل على اتخاذ إجـراءات دفاعية

(أنواع الكبت) . ولكن هذا الدفاع ، وإن يكن ناجعًا بصورة مؤقتة ، يسفر عن نقصه حين يؤدى تنشيط الحياة الجنسية إلى زيادة المطالب الغريزية التى سبق نبذها . ومن ثمة فإن وجهة النظر البيولوجية لابد أن تفسر أن الأنا يفشل فى مهمة السيطرة على تهيجات العهد الأول للجنسية بينما عدم نضجه يجعله عاجزًا عن ذلك . ونحن نرى أن الشق الجوهرى للأعصبة ينحصر فى هذا التأخر فى نمو الأنا بالنسبة إلى نمو الليبيدو ، وأن من المحال تجنب استنتاج أن من الممكن تفادى الأعصبة لو جنب الأنا الطفلى هذه المهمة ، أى لو تركت الجنسية الطفلية تزدهر بلا عائق، كما هو الحال لدى كثير من الشعوب البدائية . وقد تكون أصول الاختلالات العصابية أعقد مما أوضحناه هنا ؛ إذ ذاك نكون قد أبرزنا على الأقل جزءًا جوهريًا من هذه الأصول المعقدة . وعلينا ألا ننسى كذلك التأثيرات السلالية الكامنة فى أعماق الهو ، علي شكل لم نتوصل بعد إلى معرفته، وتأثيرها فى الأنا فى بواكير الطفولة أقوى منه فى أى عهد آخر من الحياة. ومن ناحية أخرى فإننا نحدس أن هذا الحجز المبكر للغريزة الجنسية ، وهذا التحيز من جانب الأنا الفتى للعالم الخارجى على حساب العالم الداخلى، وهو تحيز يصدر عن التحريم المفروض على الجنسية الطفلية ، لابد وأن يؤثر فى القابلية الحضارية اللاحقة للفرد . فالمطالب الغريزية التى تحرم من الإشباع المباشر ، حتى تجبر على سلوك طرق أخرى تجد فيها إشباعًا بديلاً ، يمكن أن تفقد طابعها الجنسى إبان هذا المنعطف وتتخلص من الروابط التى تربطها بالأهداف

الجنسيـة الأولى . ونخلص من ذلك إلى أن كثـيرًا من تراثنا الحـضارى الذى نعتـز به قام على حـساب الجنسيـة ، نتيجـة لتقـييد قـوى الغرائز الجنسية.

ومـا فـتـئنا نـردد بلا ونى أن الأنا يدين بأصله كـمـــا يدين بأهم خصائصه المكتسبة لعلاقتـه بالعالـم الخارجى الواقعى . فمن اليسير علينا إذن أن نسلم بأن الحالات المرضية للأنا ، التى غالبًا ما يزيد فيها اقترابا من الهو ، تقوم على تعطل هذه العلاقـة بالعالـم الخارجى أو انقطاعها . وهناك واقـعة تؤيد ذلك : تعلـمنا الخبـرة الإكلينيكيـة أن هناك باعثـين يؤديان إلى ظهـور الذهان : فإمـا أن يكون الواقع قد غـدا أمرًا مـؤلمًا لا يطاق ، أو أن تكون الحوافز قد عـززت تعزيزاً هائلاً ، وهو أمر لابد أن يحدث فى الأنا آثـاراً مماثلة ، لوجـود المطالب المتنافـسة للهـو والعالـم الخارجى . وكـان يمكن أن تكون مشكلة الذهان بسيطة واضـحة لو كان الأنا قد انقطعت صلتـه بالواقع تمام الانقطاع ، ولكن هذا أمـر لا يحدث إلا نادراً ، بل ويحـتمل ألا يحـدث أبداً . وحتى بالنسـبة إلـى الأحوال البـعيـدة عن واقع العالـم الخارجى بُعـدَ الأحوال الهلـوسيـة المخـتلطة (Amentia) ، فإن المرضى يقررون ، عند شفائهم ، أنه فى ركن قصى من عقلهم ، على حد تعـبيرهم ، كان يقبع شـخص سوىّ حريص على الاختباء يدع العملية المرضيـة بأسرها تمضى أمام ناظرية ، وكأنه مشاهد محايـد . ولست أدرى إن كان يمكن أن نفترض أن الأمـور تمضى دائمًا

على هذا النحو وإن كنت أستطيع الإدلاء بمعلومـات مماثلة بشأن ذهانات أخرى أقل خطورة . وأذكر حـالة پارانويا مزمنة ، كان المريض فـيها - عـقب كل نوبة من الغيـرة - يدلى بحلم يزود المـحلل بتصـور صحـيح للمـوضوع خـال تمامًا من شـوائب الهذيان . وهكذا كـان يتجلى تبـاين شائق: فبـينما تكشف لنا أحلام العصابى عـادة غيرةً غريبةً لا يشـعر بها المريض فى حيـاة اليقظة ، نجد لدى الذهانى أن الهذاء فـى حال اليقظة يصححه حلم . وقد يكون بوسعنا أن نقرر أن ما يحدث فى كل الحالات المماثلة إنما هو انفصام نفسى . فهناك موقفان بدلاً من موقف نفسى واحد ، أحدهمـا ، وهو الموقف السوىّ ، يـضع الواقع موضع الاعتـبار ، فى حين يعمل الثانى ، بتأثير الحوافز ، على فصل الأنا عن الواقع . ويوجد الاثنان جنبًا إلى جنب . وتتوقف النتيجة على قواهما النسبية . فإن كانت الغلبـة للأخيـر ، تحقق شـرط الذهان . أما إن انعكست الآيـة ، حدث الشفاء الظاهر من المرض الهذائى. والواقع أنه قفل راجعًا إلى اللاشعور. كما أن هناك مـشاهدات أخرى عديدة تحملنا على التقـرير بأن الهذاء كان موجودًا قبل انطلاقه الظاهر بزمن طويل .

وما كنا لنولى وجهة النظر التى تسلم بانفصام الأنا فى كل ذهان كل هذا الاهتـمـام ، لو لم تجـد ما يؤيـدها فى حالات أخـرى أقـرب إلى الأعصبة، وأخيرًا فى الأعصبـة ذاتها . وقد اقتنعت أولاً بذلك فيما يتعلق بحالات الفتيشية . فـهذه الحـالة الشـاذة التى يمكن إدراجـها فى عـداد

الانحرافات ، تقوم - كما هو معروف - على كون المريض ، وهو رجل فى كل الحالات تقريبًا ، لا يعترف بعطل المرأة عن القضيب ، وهو دليل بالغ الألم لديه على إمكان إخصائه هو . لذلك فهو ينكر ما يشعر به إدراكه الحسى ذاته من انعدام القضيب من الأعضاء التناسلية الأنثوية ، ويتشبث بنقيض هذا القول . ولكن الإدراك الحسى ، وإن أنكره المريض، لا يظل منعدم التأثير ، وهكذا لا يجرؤ المريض على ادعاء أنه قد رأى قضيباً بالفعل إلا أنه يختار شيئاً آخر جزءاً من الجسم أو موضوعًا ينسب إليه دور القضيب ولا يستطيع التخلى عنه ، وهو فى العادة شىء رآه المريض الفتيشى حينما كان يشاهد الأعضاء التناسلية الأنثوية بالفعل ، أو هو بديل رمزى للقضيب . ومع ذلك فليس من الصواب تسمية هذه العملية فى تكوين الفتيش انفصامًا فى الأنا ؛ بل هى توفيق يتم بمعونة النقل كما هو معروف لنا من الحلم . ولكن ملاحظاتنا لا تنتهى عند هذا الحد . فإن خلق الفتيش أساسه القضاء على احتمال الخصاء بحيث يستطيع المرء الإفلات من قلق الخصاء . فإن كان للمرأة قضيب ، مثل كل كائن حى، فلا حاجة إلى أن يفرق المرء من أن يسلب قضيبه . ومع ذلك فإنا نلمس لدى بعض المرضى الفيتيشيين خوفًا من الخصاء يماثل خوف غير الفتيشيين، وهم يستجيبون له على نفس النحو . ومن ثمة فإن سلوكهم يعبر عن رأيين متناقضين . فهم من ناحية ينكرون الوقائع التى يمدهم بها إدراكهم الحسى وهى أنهم لم يروا القضيب فى أعضاء المرأة التناسلية ، ومن ناحية أخرى يعترفون بخلو

المرأة من القضيب ويستخلصون منه النتائج المترتبة عليه . ويبقى هذان الموقفان طوال الحياة جنبًا إلى جنب ، دون أن يؤثر أحدهما فى الآخر . وهذا ما يكون تسميته بانفصام **الأنا** . وهذا الوضع يسمح لنا كذلك بتفهم كيف أن الفتيشية غالبًا ما تظل ناقصة التكوين . فهى لا تفرض اختياراً قاصراً على موضوع بعينه ، بل تترك مكانًا - بقدر متفاوت - لمسلك جنسى سوىّ ، بل قد تؤدى أحيانًا دوراً متواضعًا أو لا نكاد نستبينه . ومن ثمة فإن فصل الأنا عن واقع العالم الخارجى لا ينجح ألبتة تمام النجاح لدى الفتيشية .

ولا يعتقدنّ امرؤ أن الفيتشية حالة استثنائية من انفصام الأنا ؛ بل كل ما هنالك أنها موضوع دراسة لهذه الظاهرة دراسة ملائمة على وجه التخصيص . فلنعد إلي تلك الواقعة التى أشرنا إليها ، وهى أن الأنا الطفلى ، مدفوعًا بتأثير العالم الواقعى ، يتخلص من المطالب الغريزية المرهوبة ، بما يسمى بعمليات الكبت . ولنكملها الآن بإضافة واقعة أخرى: هى أن الأنا إبان نفس العهد من الحياة ، يلفى نفسه مضطراً فى كثير من الحالات إلى مغالبة بعض المطالب الأليمة للعالم الخارجى ، مستعينًا فى ذلك بإنكار الإدراكات الحسية التى تظهره على مطالب الواقع . وحالات الإنكار هذه كثيرة الحدوث ، ولا تقتصر على الفتيشيين وحدهم . فكلما أتيحت لنا فرصة دراستها ، تكشف لنا باعتبارها نصف إجراءات ومحاولات ناقصة للانفصال عن الواقع . والإقرار يكمل الرفض

دائمًا ، فينشأ موقفان متعارضان مستقل أحدهما عن الآخر ، مما يفضى إلى انفصام الأنا ، وتتوقف النتيجة ثانية على مدى شدة كل من الموقفين.

والوقائع الخاصة بانفصام الأنا التى وصفناها هنا ليست من الجدة والغرابة بالقدر الذى يمكن أن تظهر به لأول وهلة . فإن السمة العامة للأعصبة هى قيام سلوك معين على موقفين مختلفين فى الحياة النفسية لدى الفرد ، موقفين متعارضين ومستقلين أحدهما عن الآخر . وإنما يكون أحد الموقفين إذ ذاك مرده إلى الأنا والموقف المضاد مرده إلى الهو بوصفه مكبوتًا. والفصل بين الحالتين فصل طوبوغرافى أو بنائى فى جوهره ، وليس من اليسير دائمًا القطع بغلبة أى من الموقفين فى كل حالة فردية . ومع ذلك فإن بينهما طابعًا مشتركًا هامًا يتبين مما يلى : فأيا كان الموضوع الذى يوجه إليه الأنا جهده الدفاعى سواء كان جزءًا أنكره من العالم الخارجى الفعلى أو مطلبًا غريزيًا استبعده فى العالم الداخلى ، فالنتيجة لا تكون كاملة ثابتة ألبتة ، إذ يظهر دائمًا الموقفان المتعارضان ويؤديان كلاهما - بما فيهما الموقف الخاضع الأضعف - إلى خلق صعوبات نفسية. ولنضيف مرة أخرى أن إدراكنا الحسى الشعورى لا يسمح لنا بأن نعرف إلا جزءًا ضئيلاً من هذه العمليات كلها

الفصل التاسع

العالم الداخلى

لا سبيل إلى عرض معارف معقدة متجاورة إلاّ بوصفها على التوالى، لذلك يؤخذ على عرضنا فى المحل الأول تبسيطه المغرض فهو على وجه العموم فى حاجة إلى استكمال حتى يستقيم .

إن تصور الأنا وسيطًا بين الهو والعالم الخارجى ، بحيث يتقبل مطالب الأول الغريزية ويسعى لإشباعها ، ويجمع الإدراكات الحسية من الأخيرة ، ويستغلها كذكريات ، ويلجأ إلى حفظ الذات حيال المطالب المبالَغ فيها من كلا الجانبين فيقاومها ، وبذلك يخضع الأنا - فى كل ما يتخذ من قرارات - لما يمليه عليه مبدأ اللذة المعدل ، هذا التصور لا يصدق إلا على الأنا حتى نهاية عهد الطفولة الأول (حوالى الخمس سنوات) . إذ ذاك يحدث تغير هام : إذ ينفصل جزء من العالم الخارجى ويصبح على الأقل موضوعًا جزئيًا . ويندمج فى الأنا (عن طريق التوحد) - أى يصبح جزءًا مكونًا للعالم الداخلى . وتستمر هذه المنظمة النفسية الجديدة فى القيام بالوظائف التى كان يؤديها من قبل أفراد معيَّنون فى العالم الخارجى؛ فهو يراقب الأنا ، ويصدر إليه الأوامر ، ويقوم

اعوجاجه ، ويتهدده بالقصاص ، تمامًا كالوالدين اللذين حل محلهما . هذه المنظمة نسميها **الأنا الأعلى** ونشعر بها وهى تؤدى وظائفها القضائية ، بمثابتها ضميرنا . ومما يسترعى النظر أن الأنا الأعلى يظهر فى أغلب الأحيان قسوة لا نجد أصلاً لها عند الوالدين فى الواقع . فهو لا يكتفى بمحاسبة الأنا على أفعاله فحسب ، بل يحاسبه أيضًا علي خواطره ومقاصده التى لم تنفذ والتى يبدو أنه على علم بها . ولنذكر أيضًا أن بطل أسطورة أوديب استشعر الإثم على ما اقترف ، وأنه عاقب نفسه ، وإن كان يجب تبرئته فى نظرنا وفى نظره لما قضت به النبوءة . والواقع أن الأنا الأعلى وريث عقدة أوديب وهو يقوم أولاً بانتهائها . لذلك فإن قسوته المفرطة لا تحاكى نموذجًا واقعيًا ولكنها تقابل قوة الدفاع الموجه ضد إغراء عقدة أوديب . ولا شك أن الفلاسفة والمؤمنين قد لمسوا هذا المعنى عندما قرروا أن التربية لا يمكن أن تغرس فى الناس حاسة خلقية ولا يمكن أن تكسبهم إياها الحياة فى مجتمع ، ولكنها تنبع فيهم من مصدر أعلى .

ويصعب التمييز بين مظاهر الأنا والأنا الأعلى ما داما يعملان في توافق تام ، ولكن التوترات والخلافات بينهما يمكن ملاحظتها بوضوح تام. فإن عذاب وخز الضمير يقابله لدى الطفل قلقه من فقدان الحب ، وهو قلق تقوم المنظمة الخلقية مقامه .

ومن ناحية أخرى ، عندما يقاوم الأنا بنجاح إغراء بإتيان ما يأنف منه الأنا الأعلى ، فإنه يشعر بزيادة اعتباره لذاته ، ويعظم اعتزازه بنفسه ، وكأنه كسب مكسبًا قيمًا . وعلى هذا النحو يمضى الأنا الأعلى فى القيام

بدور العالم الخارجي تجاه الأنا ، وإن كان قد أصبح جزءًا من العالم الداخلي . فهو يمثل طوال عهود الحياة اللاحقة ، أثر عهد طفولة الفرد ، وما تلقاه من رعاية وتربية واعتماد علي الوالدين ، تلك الطفولة التى تمتد عند بنى الإنسان فى الحياة العائلية المشتركة . والعامل الفعال فى كل هذا ، لا يقتصر على صفات الآباء الذاتية ، بل يشمل كل ما أثر فيهم ، والميول والمطالب الخاصة بالظروف الاجتماعية التى يعيشون فيها ، كما يشمل مميزات عنصرهم وتقاليده . ويمكن لأولئك الذين يميلون إلى التعميمات والتمييزات القاطعة أن يقولوا إن العالم الخارجي الذى يلفى الفرد نفسه بين ظهرانيه بعد انفصاله عن والديه ، يمثل قوة الحاضر ، وأن الهو عنده بميوله الموروثة يمثل الماضى العضوى . وأن الأنا الأعلى الذى يلحق بهما فيما بعد يمثل قبل كل شيء الماضى الحضارى الذى يتعين على الطفل أن يبعثه وبحياة ثانية أثناء سنى طفولته . ولكن ليس من المحتمل أن تكون هذه التعميمات صادقة صدقًا تامًا . فلا شك أن بعض المكاسب الحضارية قد تركت راسبًا فى الهو . ثم إن الكثير مما يأتى به الأنا الأعلى يجد صدى له فى الهو ، وما يحياه الطفل لأول مرة يزداد قوة لأنه ترديد لخبرة سلالية أولى . «وما ورثته عن أسلافك ، اكتسبه كيما يصبح ملكًا لك»[1] . وبذلك يتخذ «الأنا الأعلى مركزًا وسطًا بين الهو والعالم الخارجي ؛ فهو يجمع فى ذاته بين تأثيرات الحاضر والماضى . وكأننا نعاين فى نشأة الأنا الأعلى نموذجًا من تحول الحاضر إلى الماضى» .

---

(١) [جوته : فاوست الأول (المترجمان) .

ثبت المصطلحات

ليست الغاية من وضع معجم لمصطلحات التحليل النفسى الواردة فى متن الكتاب مجرد تعريبها والتعـريف بها تعريفًا موجزًا لا يتعدى الشرح اللغوى ، وإنما الغاية منه توضيح مـعانى هذه المصطلحات من حيث هى مفاهيم علمية لها مكانها المحدد في نطاق نظرية عامة فى الحياة النفسية . فكان لابد إذن من الإحالة المستمرة إلى نصـوص فرويد ترجمة وتلخيصًا ، لنقل الفكرة نقلاً مباشـرًا فيه تبسيط وإظهار لجوانبها المـختلفة ومحلها من فكر فرويد على وجه العموم .

وقد اقتصرت الإشارة إلى عـدد قليل من رواد التحليل النفسى ، جاء ذكرهـم تكملة لبعض الخطوط التـى رسمهـا فرويد ، دون الدخـول فى التفـاصيل أو فـيمـا أدت إليه بعض دعـاويه من اختـلاف فى الرأى بين المحللين أنفسهم . وإن كان ثمة مفهوم مستمد أصلاً من الطب العقلى أو من علم النفس المرضى فقد توخيت إظهار ما أضافه التحليل النفسى إليه من معنى جديد يتـمشى والمبادىء العامة المـسلم بها . لذلك أصبح من المحتم التوسع فى شـرح كل مفهوم ومراعاة تضايف الـمفاهيم وتكاملها بحيث يستشف القارىء من خلالهـا شيئًا من البناء النظرى العام للتحليل النفسى .

دكتور / سامى محمود على

الإسكندرية فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦١

١ - انحرافات Perversionen - Perversions :

الانحراف الجنسى دافع غرزى جزئى - مصـدره الليبيدو والعدوان - يدخل أصلاً فى تكوين الفـعل الجنسى السوى - الاتصـال الجنسى بأحد أفراد الجنس الآخر ومـا يصحب ذلك من مقدمـات - ولكنه دافع استقل بذاته وحل محل الفـعل الأصلى وأصبح بذلك الوسيلة الوحيـدة للإشباع الجنسى .

ولما كانت هذه الدوافـع الجنسية الجزئية - التى تـرجع إلى ما قبل المرحلـة التناسلية - هى بعـينها أصل الصـراع النفسى وموضـوع الكبت العصابى وقوام الأعراض المرضية إذا فـشل الكبت ، فإن ثمة علاقة وثيقة بين الانحرافات الـجنسية والأمراض النفسـية : «فالمرض النفـسى - كما يقول فرويد - هو الصورة السلبية للانحراف» .

ومن ناحية نظرية الليبيدو ، تدل الانحرافات الجنسية على تغير يطرأ على السير السـوى للنمو الجنسى من حيث الموضـوع الجنسى (الشخص الذى يصدر عنه الجذب الجنسى) ومن حيث الهدف الجنسى (الفعل الذى ترمى إليه الغريزة) .

Cf. S. Freud. Three Essays on the Theory of Sexuality. Ch. I. The Sexual Aberrations.

راجع

The Standard Edition of the Complete Psychological Works of S. Freud.

†Vol. VII. London1953 .

قارن : كتب منطقة شهوية .

Psychiche Spaltung
Psychic Splitting **انفصام نفسى**
Morcellement Psychique

Ichspaltung
Splitting of the Ego **انفصام الأنا**
Morcellement du Moi

يدل مفهوم الانفصام لدى بلويلر E. Bleuler على مميز جوهرى من مميزات مرض الفصام (Schizophrenia)، ويتجلى فى الميل إلى الفصل أو التفرقة أو التقسم أو التجزئة . «فنحن نواجه فى كل حالة انقساما يتفاوت تحديدًا فى الوظائف النفسية . فإن اشتد المرض فقدت الشخصية وحدتها ؛ ففى الأوقات المختلفة تبدو المركبات النفسية المختلفة وكأنها تمثل الشخصية بأسرها . ويبدو أن تكامل مختلف المركبات والدوافع غير كاف بل وغير موجود . فالمركبات النفسية لا تتجمع فى مزيج من الدوافع

ذى نتائج موحد كما يحدث لدى الشخص السوى . وإنما نجد أن مجموعة من المركبات تسيطر على الشخصية وقتًا ما بينهما تصبح مجموعات آخرى من الأفكار أو الدوافع «فى حالة انفصام» كأنها فقدت قوتها فقدًا جزئيًا أو كليًا . وغالبًا ما لا تتكون الأفكار إلا تكونًا جزئيًا ، وتترابط أجزاء من الأفكار على نحو غير منطقى لتكوين فكرة جديدة ، وتفقد المفاهيم كمالها ويبدو وكأنها تخلت عن أحد مركباتها الأساسية أو أكثر من مركب» .

E. Bleuler: Dementia Praecox or the Groups of Schizophrenias, p. 9. Intern Univers. Press, N. Y. 1955

وهذا المفهوم الوصفى يسبغ عليه فرويد معنى ديناميًا إذ يتناوله من زاوية الصراع النفسى . يقول فرويد فى مقاله «انفصام الأنا فى العملية الدفاعية» : «فلنفترض اذن أن الانا لدى الطفل وقع تحت وطأة مطلب غريزى قوى تعود إشباعه ولكنه فزع فجأة على أثر خبرة علمته أن استمرار الإشباع يؤدى إلى خطر لا يطاق . فعليه الآن أن يقرر إما أن يعترف بالخطر الحقيقى فيستسلم له وينزل عن الإشباع الفرزى أو ينكر الواقع ويقنع نفسه بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف كيما يتمكن من استبقاء الإشباع . فثمة إذن صراع بين مطلب الغريزة ومطلب الواقع . . ولكن الواقع أن الطفل لا يأخذ بأى من السبيلين أو هو بالأحرى يأخذ بهما فى آن واحد . . وتبقى الاستجابتان المتباينتان للصراع بوصفهما النقطة المركزية لانقسام الأنا . وتبدو العملية بأسرها لنا غريبة لأننا نسلم

بالطبيعـة التركيبية لأفـعال الأنا . ولكن من الجلى أننا على خطأ ههنا . فالوظيفة التـركيبية للأنا ، رغم ما لها من أهميـة بالغة ، تخضع لشروط معينة وتتعرض لسلسلة كاملة من الاضطرابات» .

S. Freud : Splitting of the Ego in the Defensive Process. Collected Papers, V. Hogarth Press, London 1950.

٣ - إيحاء Suggestion :

من أكثـر المفهومـات شيوعًا فى تاريخ علم الـنفس والطب النفسى وأقلها تحديدًا فى الآن ذاته . ويقال عادة عن شخص أنه خضع لإيحاء إن خطرت له فكرة أو اعتنق عقيدة أو شعر بميل دون أن يدرك أن الفكرة أو العقيدة أو المـيل يصدر فى الحقيقة عن فعل خـارجى مباشر أو عن إرادة مستقلة عنه .

ولقد لعب مـفهوم الإيحاء دورًا هامًا فى تـكوين مذاهب علم النفس الاجتماعى ونظريات العلاج النفسـى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : فمن ناحية نجد أن فكرة الإيحـاء هى الدعامة التى يقيم عليها جوستاف لوبون – مـثلاً – وصفه لظواهر الجمهرة وسـيكولوجية الظواهر النفسية الجمعية (راجع : G. Le Bon, *Psychologie des Foules,* Paris : 895.) . ويشترك معه تاردفى جعله الإيحاء أصلاً للمحاكاة التى يرجع إليها تكون الظواهر الجمعية (راجع : G. Trade : *Les Lois de*

(*L'imitation* : I 850) . ومن ناحية أخرى فقد أسس ليوبو وبرنهايم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ما يعرف باسم مدرسة نانسى Ecole de Nancy التى استخدمت التنويم المغناطيسى فى علاج الأمراض النفسية (ولاسيما الهيستريا) ، وكان المعروف أن التنويم المغناطيسى نوع من الإيحاء المتعمد (راجع : Bernheim : *De la Suggestion el de ses applications á la Thérapeutique*. 1886) .

وقبل أن يكتشف فرويد طريقة التداعى المطلق ، استخدم الإيحاء على نحو ما كانت تستخدمه مدرسة نانسى بعد أن تبين له أن التنويم المغناطيسى لا يمكن تطبيقه على الكثير من المرضى النفسيين . (قارن القاعدة الأساسية) .

وكان فرويد من أوائل من تنبه إلى الغموض الذى يكتنف ظواهر الإيحاء مبينًا أن مفهوم الإيحاء لا يفسر الظواهر النفسية ولا الاجتماعية لأنه هو نفسه مفتقر إلى تفسير . ويعرض فرويد نظريته فى الروابط الليبيدية ويفسر على ضوئها العلاقة النكوصية التى تنشأ بين فردين يؤدى أحدهما دور الأنا الأعلى بالنسبة إلى الآخر والتى تسمح بظهور ظاهرة الإيحاء .

راجع :

S. Freud : *Group Psychology and the Analysis of the Ego*, Hogarth Press London 1949 .

شيدلنجر : التحليل النفسى والسلوك الجماعى ترجمة الدكتور سامى محمود على ، المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

G. Zilborg : *A History of Medical Psychology* p. 367. Norton, N. Y., 1941.

٤ - ايروس Eros :

Destruktionstrieb order Todestrieb
Death Instinct
Instinct de mort

غرائز التدمير أو غريزة الموت

نظرية فرويد فى الغرائز تفترض ثنائيتها . وقد بدأ فرويد بوضع نظرية سيكولوجية في الغرائز أساسها مكتشفات التحليل النفسى ، والغاية منها توضيح مغزى هذه المكتشفات من حيث الدوافع والميول العامة . فافترض بادىء ذى بدء وجود دوافع غريزية متعارضة هى دوافع الأنا والدوافع الجنسية ، تستهدف الأولى حفظ الفرد والثانية حفظ النوع . وربط فرويد بين هذين الصنفين من الغرائز وفئتين متعارضتين من الأمراض النفسية : فثمة من جهة الأمراض العصابية النرجسية (أو الأمراض الذهانية) ومردها إلى غلبة دوافع حفظ الذات ، ومن جهة أخرى ثمة أعصبة التحويل (الهيستريا والوسواس) وتتميز بغلبة الدوافع الجنسية . ويجب التنبيه إننا حيال «فرض عملى لا نأخذ به إلا بقدر ما نتبين

جـدواه، وإبدال فرض آخـر به لا يغـير كـثيرًا مـا نقـوم به من وصف وتصنيف».

S. Freud, Instincts and their vicissitudes, *Collected Papers*, IV, Hogarth Press, London 1950.

وفى كتاب «ما وراء مبـدأ اللذة» عدل فرويد هذه النظرية بناء على ما شاهده من ظواهر مرضية تتسم بوجود دوافـع غريزية غير قابلة للتعديل ، وإنما تتكرر فى حياة الفرد تكرارًا آليًا أعمى ، وهى معارضة لدوافع الحياة معارضــة صريحة . لذلك أعاد تصنيف الغـرائز فأدرج دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ الجنس تحت غريزة الحياة أو الإيروس ، ووضع فى مقابلها ما أسماه غريزة التدمير أو الموت .

S. Freud : Au delá du principe de plaisir. *Essais de psychanalyse*, Payot, Paris 1948.

راجع .

٥ - بارانويا Paronoia :

مرض عـقلى يتمـيز بوجـود نسق منظم من الأفكار الهـاذية وسلسلة منطقيـة من النتائج المـستنبطة من مـقدمـة خاطئة خطأ مطلـقًا يؤمن بها المريض إيمانا مطلقًا لا يمكن زعزعتـه أو تعديله أو التشكيك فيه . ومن حيث المضمون نجد أن فكرة الاضطهـاد والريبة من نوايا الغير وأفعالهم

تقوم بدور رئيسى فى هذا المرض ، أما من حيث الشكل فإن المر يستخدم عملية الإسقاط استخداماً متصلاً فينسب إلى الغير أفكاره ومشاعر، ولا يفتأ يؤول حركات الآخرين وسكناتهم بما يتفق واعتقاده المرضى بحيث يتحول الصراع الداخلى - فى النهاية - إلى صراع خارجى بين المريض والآخرين ، منقطع الصلة - بالنسبة للخبرة الشعورية للمريض - بأصله الذاتى .

وقد بين فرويد - فى دراسته لحالة من حالات البارانويا هى حالة شريبر بين - أهمية الجنسية المثلية والموقف الأوديبى السلبى فى نشأة هذيان الاضطهاد . فثمة دافع جنسى للحلول محل الأم بالنسبة للأب ، وهو دافع مرفوض كل الرفض ولا يمكن قبوله شعورياً ، مما يحدو بالأنا إلى مواجهته للتخلص منه . وهذه المواجهة تتم عن طريق النكوص إلى المرحلة النرجسية من مراحل الليبدو ثم تكوين هذيان الاضطهاد وإسقاط عناصر هذا الهذيان على العالم الخارجى وفقاً للمعادلة الآتية : «أنا (رجل) أحبه (رجل)» (حب جنسى مثلى) ، تتحول - بفضل ثنائية العواطف - - إلى «أنا أكرهه» ، ثم - بالإسقاط - «هو يكرهنى (يضطهدنى)» وأخيراً : - «أنا أكرهه لأنه يضطهدنى» . والملاحظ أن الشخص الذى يركز المريض عليه المشاعر العدوانية هو نفس الشخص الذى كان فيما قبل موضوعاً لمشاعر الحب وهو فى الحالين بديلاً للأب .

راجع : S. Freud : The Schreber Case. *Collcted Papers* 111.

٦ - تثبت لبدى :

Libidofixierung
Libidofixation
Fixation libidinale

فى التحليل النفسى يدل على تشبث الليبدو بشخص أو موضوع أو مرحلة من مراحل التطور النفسى والجنسى ، مما يقلل فيما بعد مقدار الليبدو المهيأ للتوافق مع الواقع ، ويساعد على حدوث نكوص إلى إحدى التى ثبت عليها الليبدو إذا ما اعترض طريق الإشباع الحالى عقبات عجز الفرد عن تذليلها وبهذا المعنى يكون التثبيت أساسًا لتعرض الفرد - فيما بعد - للإصابة بالمرض النفسى أو العقلى . ويختلف نوع المرض باختلاف المرحلة التى توقف عدها النمو النفسى والجنسى أى باختلاف نقط التثبت الليبيدى .

راجع :

S. Freud : Trois essais sur la Théorie de la Sexualité, p. 183 et suiv.

قارن : نكوص : منطقة شهوية .

Ubertragung

٧ - تحويل : Transference

Transfert.

فى علم النفس العام ، وفى نظرية التعلم بالذات ، يستخدم مفهوم التحويل للدلالة على «نقل فعل أو نمط من السلوك من عمل إلى آخر» (Woodworth) بمعنى إن اكتساب خبرة معينة يؤدى إلى رفع مستوى الإنجاز للفرد فى عمل مماثل ، أو إلى خفض مستواه إن كان العمل الجديد مغايراً للعمل الأصلى كل المغايرة . وفى الحالة الأولى يقال إن ثمة تحويلاً موجبًا (نتيجته تيسير عمل الفرد) وفى الحالة الثانية تحويل سلبى (نتيجته إعاقة نشاط الفرد) . وبهذه المثابة يعتمد مفهوم التحويل على نظرية «العناصر الواحدة» (Identical Elements) ونصها - كما صاغها ثورندايك (Thorndike) : «إن التغير الذى يطرأ على وظيفة ما لا يغير وظيفة أخرى إلا بمقدار ما يكون للوظيفتين من عناصر واحدة» .

أما فى التحليل النفسى فيدل مفهوم التحويل على موقف انفعالى معقد يقفه المريض تلقائيًا من المحلل النفسى ويتميز أحيانًا بغلبة مشاعر الحب أو مشاعر العدوان وإن كان يتألف غالبًا من مزيج من العنصرين (التحويل الموجب ، التحويل السالب ، التحويل المزدوج الميل) . وهذه المشاعر لا تنطبق على الموقف الحاضر وإنما هى مواقف لا شعورية طفلية ، يحياها المريض ثانية فى الموقف العلاجى ويخلع فيها على

المحلل شخصية الأفراد المسئولين عن نشأة هذه المشاعر وعن تكوين شخصية المريض تكوينًا يتسم بالصراع النفسى والعجز عن النمو النفسى الكامل (الوالدان ومن حل محلهما) .

ففي التحويل - كما يقول فنيكل - «يسىء الفرد فهم الحاضر برده إلى الماضى . وإذ ذاك لا يستعيد الفرد ذكرى الماضى وإنما يسعى ، عرضًا عن ذلك ، أن يعيش الماضى مرة أخرى وأن يعيشه أفضل مما فعل فى طفولته وهو فى كل ذلك لا يدرك طبيعة ما يفعل» والتحويل بهذا المعنى يعتمد على ما سماه فرويد «يقهر التكرار» Repetition-Compulsion .

والتحويل هو الظاهرة الأساسية فى عملية العلاج بالتحليل النفسى لأن المريض يحيا فى المواقف مشكلته الجوهرية بكل دقائقها الانفعالية ، ومن ثمة يتمكن من حلها حلاً موفقًا عن طريق مراجعة تاريخه المنسى كما يتكشف من خلال موقف التحليل .

راجع :

Woodworth : *Psychologie experimentale*, Paris 1949

O. Fenichel : *Psycho analytic theory of Neuroses* p. 29-30.

٨ - تخيلات :

Fantasien
Fantasies
Fantaisies, fantasmes

نتاج الخيال من حلم يقظة وأخيلة لا شعورية . فمن ناحية يميز التحليل النفسى بين الأخيلة اللاشعورية الحقة التى تلقاها لدى الطفل الصغير الذى لم يتكون الأنا لديه بعد . وتتميز هذه التخيلات بغلبة الدوافع العدوانية الفمية والشرجية وبسيطرة نوع بدائى من العلاقات بالموضوعات الطيبة والشريرة . ومن ناحية أخرى ، فهناك الأخيلة الشعورية Fantases التى تتخذ شكل أحلام اليقظة وتتصف بصفات مستقلة عن صفات التخيلات اللاشعورية ، فطابعها الشعورى دليل على وجود أنا على قدر كافٍ من النضج يسمح بظهورها والسيطرة عليها ويحصل بها على إشباع معين . فالتخيلات الشعورية بهذه المثابة توفيق ناجح بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة .

والتحليل النفسى يدرس التخيلات من حيث إنها تعبير عن الدوافع اللاشعورية وإفصاح عن حيل الدفاع التى يستعين بها الأنا فى السيطرة على هذه الدوافع ومواجهتها بمقتضيات الواقع . وقد درست أنا فرويد التخيلات من هذه الزاوية تحت عنوان : «النفى بالتخيلات» .

راجع :

Anna Freud : *Le Moi et les mécanismes de défense*. P. U. F. Paris 1949.

S. Lebovici & R. Diatkine : Etude des fantasmes chez l'enfant *Revue Française de psychanal*. Jan. Paris 1954.

٩ - التسامي : Triehsublimierung Sublimation

يجب التمييز بادىء ذى بدء بين التسامى والكبت . ففى الكبت يستبعد الأنا الدافع الغرزى عن الشعور استبعاداً تامًا مستعينًا بحيلة أو أكثر من حيل الدفاع ، بينما فى التسامى يتقبل الأنا الدافع الغرزى ولكنه يحول طاقته من موضوعه الأصلى إلى موضوع بديل ذى قيمة ثقافية واجتماعية . وتنصب هذه العملية أولاً وبالذات - إن لم توجد فى الشخص أعراض عصابية أو انحرافات جنسية - على الدوافع الجنسية المميزة لمراحل النمو المبكرة السابقة على المرحلة التناسلية . يقول فرويد : «إن المنبهات القوية الصادرة عن المصادر الجنسية المختلفة تنصرف وتستخدم فى ميادين أخرى بحيث تؤدى الميول التى كانت خطرة فى البداية إلى زيادة القدرات والنشاط النفسى زيادة ملحوظة . تلك إحدى مصادر الإنتاج الفنى . وإن تحليل شخصية الأفراد ذوى المواهب الفنية ليدلنا على العلاقات المتغيرة

القائمة بين الخلق الفنى والإنحراف والعصاب ، بقدر ما كان التسامى كاملاً أم ناقصًا . . . وإن الجانب الأكبر لما نسميه «الطبع» مركب من مادة المنبهات الجنسية ومؤلف من ميول ثبتت منذ الطفولة أو إكتسبت عن طريق التسامى أبنية الغاية منها كبت الاتجاهات المنحرفة التى استحال استخدامها»

راجع :

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, p. 177-8.

١٠ - تكثيف : Verdichtung
Condensation

عملية رمزية يتاح بها لمضمون ظاهرى واحد التعبير عن عدة مضمونات كامنة كما هو الشأن فى الأحلام والأعراض العصابية . ويميز فرويد - بصدد نظريته فى الأحلام - بين نوعين من التكثيف ؛ الصور المزيجة والأشخاص الجمعية . مثال على النوع الأول : «إن الشخص الرئيسى فى محتوى الحلم هو مريضتى أرما التى تظهر فى الحلم بالملامح التي أعرفها لها فى حياة اليقظة والتى تمثل بذلك شخصها ذاته . ولكن الوضع الذى أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذاً من ذكرى شخص آخر وأعنى به تلك السيدة التى كنت أود استبدالها بمريضتى - كما تبين من أفكار الحلم . وأرها من حيث ما يظهر عندها من غشاء

دفـترى يذكـرنى بقلقى من أجل ابنتى الكبـرى تمـثل هذه الابنة ، وهذه بنوبتها تخفى - بجامع الاشتراك في الاسم - شخص المريضة التي ماتت من جراء الـتسمم» . ومـثال على النوع الثـانى : «وهناك طريقـة أخرى أستطيع بواسـطتها أن أركب شـخصًا جمـعيًّا من أجل أغـراض التكثيف الحلمى وذلك حين أمزج الملامح الحقيقـية لشخصين أو أكثر فى صورة موحـدة : عل هذا النحو ركب شخص الدكـتور م. فى حلم أرما ، فـهو يحـمل اسم الدكتـور م. ويتحـدث مثله ويعـمل مثله ولكن خـصائـصه الجسمية ونوع عرضه كانت لشخص آخر هو أخى» .

راجع : سيـجمـوند فرويد : تفـسيـر الأحلام ص ٣٠٦ . ترجـمة مصطفى صفوان . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

١١- توحد : Identifizierung Identification

من المفـاهيم الأساسية فى تفـسير التحليل النفـسى نشأة الشخـصية وتكونها . ولحد هذا المفهوم يجب أن نميز أولاً بين المحاكاة والتوحد . فالمحـاكاة عملية شعورية قـصدية يضع بها فرد نفسـه مكان الآخر وضعًا مؤقتًا - فيأتى بأفعاله ويردد أقواله - دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهرى فى شخصـيته . وعلى الضد فإن التوحـد عملية لا شعورية بعـيدة المدى نتائجـها ثابتـة ويكتسب بهـا الشخص خـصائص شخص آخـر تربطه به روابط انفعـالية قوية . ويميـز التحليل النفسى بين نوعين مـن التوحد :

التوحـد الأول الذى يحدث فى الأشهر والسنوات الأولى من مـراحل نمو الطفل وبه يصبح الطفل مـا هو بتوحده بوالديه ، أى أن التـوحد الأولى يحدد للطفل أمنيّته (ولا سيما الأنا الأعلى لديه) ، والتوحد الثانوى الذى يحدث فيمـا بعد ويكون الدافع إليه عادة تجنب موقف مـؤلم (التوحد من حيث هو حيلة دفـاعية) . ومثال هذا الـنوع الأخير ما تسمـيه «أنا فرويد» بالتـوحد بالمـعتـدى وفيـه يسيطر الفـرد على مخـاوفه من الشـخص أو الموضوع المعتدى بتوحده به ، وفيه «يتحول الشخص المهدد إلى شخص يهدد» .

راجع سول شدلنجر : التحليل النفسى ص ٢٣ .

Alice Balint : *Early years of life*. Basic Books, N. Y. 1954.

Anna Freud : *le Mqi el les mécanismes de défense*.

١٢- ذهان Psychosismen - Psychosis

يظهر الذهان حين يغـدو الواقع مؤلما إلى حد يعجز مـعه الشخص عن مواجـهتـه نفسـيًّا على أى نحو من الأنحـاء أو حين تقـوى الدوافع الغرزية بحيث لا يستـطيع المرء السيطرة عليها فيصـبح اصطدامها بالواقع أمرًا محتومًا . ففي كلتا الحـالتين يحدث نكوص في التنظيم الليبيدى من مرحلة العلاقـات بالموضوعات إلى مرحلة النرجـسية ويتم عن طريق هذا

النكوص إنكار الواقع إنكارا متفاوت المدى يكون مصحوبًا فى الآن ذاته بإنطلاق الدوافع الغرزية بلا ضابط أو اعتبار لمقتضيات الواقع . ذلك ما يعنيه فرويد إذ يقول إن الأنا فى المرض العقلى يتحالف مع الهو ضد الواقع بينما فى العصاب يتحالف الأنا مع الواقع ضد الهو .

ولقد بين فرويد - لا سيما فى دراسته البارانويا - إن المرض العقلى إبان تكونه يمر بمرحلتين : مرحلة يتم فيها الكبت المميز للذهان عن طريق انكماش الليبيدو من العالم الخارجى وانقطاع روابط المريض بالغير ، تليها مرحلة «استرجاعية» يعود فيها الليبيدو إلى الموضوعات التى تخلى عنها ويرجع ما انقطع من روابطه بالغير ويكون ذلك عن طريق الإسقاط وتكوين الظواهر المرضية الملفتة كالهذيان بمختلف مضموناته والهلاوس المنوعة . «فما يجذب انتباهنا جذبًا قويًا لهو عملية الشفاء التى تقضى على الكبت وتعيد الليبيدو إلى الموضوعات التى هجرها» . وبعبارة أخرى فإن أعراض الذهان هى فى الآن نفسه محاولة تلقائية للشفاء . وينتج عن هذه الاعتبارات النظرية فى طبيعة الذهان نتيجة عملية تتعلق بإمكان علاجه عن طريق التحليل النفسى : فقد كان فرويد مقتنعًا بإمتناع خضوع الذهان للتحليل النفسى لأننا إن حللنا الظواهر الإسقاطيّة فى الذهان قطعنا صلة المريض بالآخرين واضطررناه إلى النكوص العميق الذى لا يدع مجالاً للشفاء ، ولأن ظاهرة التحويل التى هى أساس التحليل النفسى لا تحدث فى الذهان لنكوص الليبيدو إلى المرحلة النرجسية الخالية من الموضوعات ، بيد أن فرويد عدل من تشاؤمه فى

أخريات حياته ولا سيما بصدد مشكلة إمكان التحويل فى الذهان . يقول : «وكان يمكن أن تكون مشكلة الذهان بسيطة واضحة لو كان لأنا قد انقطعت صلته بالواقع تمام الانقطاع ولكن هذا لا يحدث إلا نادرا بل ويحتمل ألا يحدث أبدًا» - (المجمل ص ٧٧). ومن جهة أخرى نجد أن فرويد يقرب الذهان من الحلم من حيث إن الحلم ذهان قصير الأمد لا يلبث أن يزول وأن التغيرات العميقة التى تطرأ على الحياة النفسية فى الحلم تتلاشى وتستعيد النفس حالة السواء . ومن ثمة يتساءل فرويد : «هل من الجرأة والحالة هذه أن نأمل فى إمكان إخضاع أمراض النفس التلقائية المخيفة لسيطرتنا والعمل على شفائها ؟ إن تحت يدنا من المعارف ما يعدنا للقيام بهذه المهمة» - الموجز ص (٤٥) . فمجال البحث فى التحليل النفسى للذهان مفتوح ينتظر رواده ومكتشفيه .

وقد تحقق للباحثين من بعد فرويد أن المرض العقلى لا يتنافى مع وجود ظواهر التحويل ، وإن كان تحويلاً مختلفًا كل الاختلاف عنه في الأعصبة ، فهو تحويل نرجسى يتميز بالشدة وعدم الثبات وتنعكس فيه الدوافع الغررية المبكرة ذات الثنائية المفرطة . لذلك أصبح المرض العقلى- من حيث المبدأ على الأقل - قابلاً للتحليل النفسى بعد تعديله بما يتفق وطبيعة المرض . وأحب هنا أن أشير إشارة عابرة إلى موقفين منهجيين من التحليل النفسى للذهان هما موقف «فيدرن» P. Federn وموقف فريدافروم - ريخمان Frieda Fromm-Reichmann .

ومن جهة أخرى فقد كان لتقريب فرويد الذهان من الحلم أكبر الأثر في ابتكار «روزن» (J. Rosen) منهجه فى علاج المـرض العقلى بطريقة التحليل المباشر "Direct Analysis" .

راجع :

P. Federn : *Ego Psychology & the Psychoses*. Basic Books. N. Y. 1952.

Frieda Fromm - Reichmann : *Psychoanalysis & Psychotherapy*. Bullard, Chicago 1959 .

J. Rosen : *L'analyse directe*. P.U.F., Paris 1959.

١٣ - سقطات (هفوات) : Fehlleistungen / Parapraxes / Actes manqués

يقصـد بها الأخطاء التى تصـدر عن النسيـان والسهو لا عـن الجهل بالموضـوع ، وهى زلات القلم واللسان وأخطاء الكتابة والأفكار الخـاطئة والعـارضة . وكـل هذه الظواهر التى تنسب عـادة إلي الصـدفة و «عـدم الإنتبـاه» هى – فى رأى التحليل النفسى – ظواهر ذات مـعنى يمكن تبينه إذا ما حددنا – بإتباع قاعدة التداعى المطلق – الظروف والسوابق المسئولة عن إحداثها . أو كما يقول فرويد : «إذا ما فحصنا بعض نقائص الوظيفة

النفسية وبعض الأفعال الغير قصدية فى الظاهر فحصا تحليليا تبين لنا أنها أفعال تدفع إليها وتحددها أسباب لا يدركها الشعور» .

ولا ينطبق هذا التفسير إلا على الحالات التى تتوفر لها الشروط التالية :

١ - يجب أن يكون الفعل ضمن حدود الحالة السوية .

٢ - يجب أن يكون الفعل اضطرابًا نفسيًا عارضا .

٣ - يجب أن تكون الأسباب المسئولة عن السقطة حين وقوعها مجهولة منا .

راجع :

S. Freud : *Psychopathologie de la vie quotidienne*, ch. XII. Payet, Paris 1948.

١٤ - سيكولوجيا الشعور :

Bewusstsein - Psychologie
Psychology of Conciousness
Psychologie de la conscience

الشعور هو موضوع علم النفس قبل ظهور التحليل النفسى الذى عارض هذا التيار وأقام ما يسمى بعلم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور . وفكرة اللاشعور فكرة قديمة وإن كانت تفهم على معنى

مغاير كل المغايرة لمعناها فى التحليل النفسى (حيث يدل اللاشعور على وجود عمليات نفسية لا شعورية) . فقد أدرك علماء النفس والفلاسفة أن الظواهر الشعورية تظهر وتختفى وإن ثمة فجوات بينها ، وإن الإحساس لا يصبح شعوريًا إلا إن بلغ درجة معينة من الشدة . كل هذه الاعتبارات وما ماثلها حملت المفكرين إلى تصور أن الظواهر الشعورية أصلها عضوى، بحيث تصبح العمليات الفسيولوجية أساسًا للشعور ، ويصبح علم نفس الشعور بهذه المثابة هو علم نفس فسيولوجي فى الآن ذاته . وقد بين هوسرل . واضع الفينومينولوجية المتعاصرة ، أدل بيان كيف نشأ علم نفس الشعور نشأة تدريجية من تأويل الكوجيتو الديكارتى تأويلاً سيكولوجيًا على يد لوك والمدرسة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر .

ولا يتخيلن امرؤ أن التحليل النفسى موضوعه دراسة اللاشعور وأن الشعور موضوع علم نفس آخر. فالواقع أن التحليل النفسى، وإن قام على معارضة التيارات السيكولوجية السائدة فى القرن التاسع عشر إلا أنه يدخل الشعور فى دراسته بل ويدرسه فى علاقته باللاشعور . ويمكن القول عامة بأن موضوع التحليل النفسى ليس هو الشعور واللاشعور بل هو الإنسان فى شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ .

راجع :

E. Husserl : Crise des sciences européennes et la phénoménologie *Revue philosophique* 1949 .

قارن : منظمات نفسية :

Neursse

١٥ - عصاب : Neurosis

Névrose

اضطرابات وظيفية غير مصحوبة باختلال جوهرى فى إدراك الفرد للواقع ، كما هو الحال فى الأمراض الذهانية . ويميز التحليل النفسى بين نوعين من الأعصبة : الأعصبة الفعلية (Actual Neuroses) مثل النيروستانيا وعصاب القلق ، والأعصبة النفسية (Psycho-neuroses) وأهمها الهيستيريا والعصاب الوسواسى . وقد بين فرويد أن الأعراض المميزة للأعصبة النفسية لا تدل على مجرد احتلال وظيفى - كما هو الشأن عند جانيه مثلاً - بل إنها ذات معنى وأن من الممكن فهم الأمراض العصابية على ضوء مفهوم «الدفاع» اللاشعورى باعتبارها وسائل متمايزة يستعين بها الأنا لدرء خطر نفسى معين . يقول فرويد فى أول عرض له (١٨٩٤) لفكرة «الدفاع» فى مجال الأمراض النفسية : «كان المرضى الذين حللتهم يتمتعون بصحة نفسية جيدة حتى عرضت لحياتهم النفسية حالة لا تطاق ، أى حتى واجه الأنا لديهم خبرة أو تصورًا أو عاطفة أثارت انفعالاً من العنف ما جعل الشخص يقرر نسيانه لأنه فقد الثقة فى قدرته على رفع التناقض بين التصور المؤلم والأنا لديه رفعًا يتم عن طريق العمل الفكرى» . لذلك فإن الأنا يجهد فى وقاية نفسه من التصور المؤلم بأن يتعامل معه وكأنه لم يحدث ، فينشأ صراع يؤدى فى

النهاية إلى استبعاد هذا التصور من نطاق الشعور . ولما كان القضاء على التصوير قضاء تامًا أمرًا محالاً ، «لأن الأثر الذكروى والانفعال المرتبط بالتصور قائمان قياما لا مرد له» ، فإن الأنا يجهد فى تحقيق هذا الهدف تحقيقًا تقريبيًا يختلف باختلاف الأمراض النفسية . ففى الهيستيريا مثلاً ، يجرد الأنا التصور المؤلم من الانفعال المرتبط به فيفقد التصور خطره وتنتفى عنه صفة التهديد بينما تنصرف الشحنة الانفعالية فى المجال الجسمى فتكون الأعراض المرضية الهيستيرية الحسية منها والحركية . وأما فى العصاب الوسواسى فينفصل الانفعال من الفكرة المؤلمة ثم يلتصق بفكرة أخرى تربطها بالفكرة الأولى رابطة غير مباشرة ، وإن كانت الفكرة البديلة خلواً من الطابع المؤلم الأصيل .

وقد بين فرويد أن إسقاط المضمون المؤلم على العالم الخارجى هو الحيلة الدفاعية التى يلجأ إليها الأنا في البارانويا .

راجع :

S. Freud : The Defence Neuro-Psychoses. *Collected Papers* I. Hogarth Press, London 1950.

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن حيل الدفاع وسائل منوعة لاستبعاد الخبرة المؤلمة من الشعور أى أنها أساليب لتحقيق الكبت ، وأن عملية الكبت ذاتها تتضمن مراحل ثلاثة : المرحلة الأولى وجود نقطة من التثبيت فى التطور النفسى وقف الليبيدو عندها . هذه النقطة تجذب إليها

الليبيدو إذا مـا اعترض سبيل الدافع الغرزى فى الحـاضر عائق حال دون الإشباع . والمرحلة الثانيـة هى مرحلة الكبت بمعنى الكلمة ، وهو ينتج عن صراع الأنا ومشتقات هذه الدوافع الغررية «التى ظلت فى المؤخرة» . والمرحلة الثالثة هى فشل عمليـة الكبت وظهور المضمونات المكبوتة فى صورة أعراض يتحقق فيهـا نوع من التوفيق بين الدوافع المتضاربة ، فمن خلالها يتم إشباع غرزى جزئى بالرغم من استمرار الحيل الدفاعية .

وثمة مـلاحظة أخيـرة ، فإن كـان فشل الكبت يفـضى إلى تكوين الأعراض العـصابية فـإن نجاحه يؤدى إلى تكويـن الخلق الفردى . ومن جهـة أخرى نجـد أن الدوافع التى تفصح عن نفـسها فى صـورة الظواهر العصابيـة - بعد أن يعجز الكبت عـن قمعها - هى ذاتهـا التى تظهر فى الانحرافات الجنسية دون أن يقع عليها الكبت .

١٦ - عقدة أوديب :

Oedipuskormplex
Oedipus Complex
Complexe d'oedipe

عقدة الخصاء :

Kastrationskomplex
Castration Complex
Complexe de castration

إن ثمة علاقة وثيقة بين العقدتين تبرر الجمع بينهما فى تقديم واحد.

تشير عقدة أوديب إلى تعلق الطفل بالوالد من الجنس الآخر تعلقًا يتناوله الكبت بسبب الصراع الذى ينشأ من اصطدام هذا التعلق بمشاعر الحب والكره والخوف التى يشعر بها الطفل تجاه الوالد من نفس الجنس . وهو ما يسمى بعقدة أوديب الإيجابية . أما عقدة أوديب السلبية فتتكون حين يحل التعلق الشبقى محل مشاعر العدوان التى يستشعرها الطفل حيال الوالد من نفس الجنس ، ومثال ذلك ما نراه عند الصدى من سلبية لا شعورية مصدرها الجنسية المثلية وموضوعها شخص الأب .

أما عقدة الخصاء فتدل على الخوف اللاشعورى من فقدان الأعضاء التناسلية أو ما يقابلها من الأعضاء ، عقابًا على إتيان الفرد بعض الأفعال الجنسية المحرمة أو شعوره ببعض الدوافع الجنسية تجاه موضوع محرم . فالخوف من الخصاء ينشأ نتيجة لوجود الموقف الأوديبى .

يقول فرويد : «يرى التحليل النفسى فى التوحد أو تعبير عن رابطة انفعالية لشخص بآخر . وهو يقوم بدور فى التاريخ المبكر لعقدة أوديب . فالصبى يبدى اهتمامًا خاصًا بوالده ، فهو يود أن يكبر مثله وأن يصبح مثله ويحل محله فى كل مكان . ويمكننا أن نقول ببساطة إنه يتخذ من والده مثلاً أعلى . وهذا السلوك لا شأن له بموقف سلبى أو أنثوى من والده (أو من الذكور عامة) ، وإنما هو على الصد موقف مذكر بالذات ، وهو يتفق تامًا مع عقدة أوديب ويمهد لهذا السبيل .

وفى نفس الآن الذى يحدث فيه هذا التوحد بالوالد أو بعده بقليل ، يبدى الصبى اهتمامًا حقيقيًا بأمه وفقًا للنمط التواكلى . فهو يكشف إذ ذاك عن رابطتين مستقلتين من الناحية النفسية . استثمار موضوعى جنسى صريح تجاه أمه وتوحد أمثل بوالده . وهاتان الرابطتان تلتقيان فى النهاية نتيجة لتقدم الحياة النفسية نحو الوحدة تقدمًا لا تقهر ، وينشأ عن هذا الإلتقاء عقدة أوديب السوية . فالصبى يلحظ أن والده يقف فى طريقه إلى أمه . وإذ ذاك يصطبغ توحده بوالده بصبغة عدوانية فيصبح مماثلاً للحلول محل الأب تجاه الأم أيضًا . والواقع أن التوحد ثنائى الميول منذ البداية فهو قد يصبح تعبيراً عن الحب بنفس السهولة التى يتحول بها إلى الرغبة فى إقصاء الآخر» .

راجع :

S. Freud : *Group Psychology and the Analysis of the Ego*. Hogarth Press, London 1949.

١٧ - غريزة :

Trieb

Drive, Instinct

Pulsion, Instinct

الأصح ترجمة هذا المفهوم بالدافع الغرزى ، لولا أن الشائع فى الفرنسية والإنجليزية ترجمته بالغريزة . لذلك يجب التنبيه إلى أن فرويد يستخدم مفهوم الغريزة هذا بمعنى خاص . فهو لا يدل لديه على ميل

بيولوجي مجاله الجسم ، بل على هذا الميل البيولوجي من حيث هو موضوع خبرة نفسية . فالغرائز هى «الممثل النفسى للمنبهات التى تصدر عن الكائن العضوى وتتغلغل فى النفس وهى فى الآن ذاته مقياس للمطالب التى تفرضها على الطاقة النفسية صلة النفس بالبدن» .

S. Freud : Instincts their Vicissitudes. *Collected Papers* IV. Hogarth Press. London 1950.

ويتناول فرويد الغرائز من وجهات نظر ثلاث : فهو يفترض أن لكل غريزة مصدراً بمدها بالطاقة الضرورية وأن لها موضوعًا تتجه إليه لغرض الإشباع وهدفًا يحقق لها هذا الإشباع .

راجع - الإيروس ، غريزة الموت .

١٨ - الفتشية : Fetichismus / Fetichism / Fetichisme

نوع من الانحرافات الجنسية يستبدل فيه الموضوع الجنسى السوى بموضوع آخر متعلق به وإن كان غير ملائم للإشباع الجنسى السوى . «وعادة ما يكون بديل الموضوع الجنسى جزءاً من الجسم قليل الملاءمة للهدف الجنسى (الشعر أو الأقدام) أو موضوعًا جامدًا على صلة وثيقة

بموضوع الحب وبجنسه على وجه التفضيل (أجزاء من ملابسه أو ملابسه الداخلية) . وهذه الموضوعات البديلة يمكن مقارنتها بالفتش الذى يجسد فيه الإنسان المتوحش إلهه .

ويتجلى فى اختيار الفتش . . . الأثر الباقى لانطباع جنسى أحس به المرء - فى أغلب الحالات - إبان الطفولة . وفى حالات أخرى فإن تسلسلاً رمزيًا للأفكار عادة ما يكون لا شعوريًا ، يؤدى إلى إبدال الموضوع بالفتش . وليس من الممكن دائمًا الاهتداء إلى السبيل الذى سلكته هذه الضروب من المستدعيات (القدم رمز جنسى غريق فى القدم ذكرته الأساطير ، وأهميته الفراء الفتشية راجعة - على الأرجح - إلى المشابهة بينه وبين شعر العانة لدى المرأة) . ولكن يبدو أن هذه الصورة من الرمزية لا تنفصل هى الأخرى عن الانطباعات الجنسية إبان الطفولة»

راجع :

S. Freud : *Trois essais* p. 45-6.

R. Abraham : Remarks on the Psychoanalysis of a case of Foot and Corset Fetichism : *Selected Papers*, Hogarth Press. London 1954.

١٩ - فقدان الذاكرة الطفلى :

Infantielen Amnesic
Infantile Amnesia
Amnésie infantile

ظاهرة ديناميــة اكتــشفهــا فرويد فى سيــاق دراسته لســنوات الطفولة الأولى . فقــد لاحظ أن النسيــان التام يلحق - لدى المــرضى والأسوياء عامــة- بذكريات وانطباعــات فترة من الطــفولة تمتــد من ست إلى ثمان سنوات وهى فتــرة تكون فيها قــدرة الفرد على التذكر فى أوجــها . وتدل المشاهدة الــتحليلية على أن هذه الذكريات والانطبــاعات تركت فى النفس أعمق الأثر وأقواه وأنها وجهت نمو الفــرد توجيهًا حاسمًا . «فليس الأمر إذن اختفاء حقيقى لانطباعات الطفولة وإنما هو فقدان للذاكرة أشبه بفقدان الذاكرة لدى العصابيين فقدانًا يمحــو ذكرى أحداث طرأت فى عهد متقدم ، ويتميــز برفض تسجيل بعض الانطباعات في الشــعور (الكبت) . يبقى أن نعرف ما هى القوى التى تؤدى إلى كبت الانطباعات الطفلية . إن من يجد إجابة على هذا الســؤال يكون قد وجد من ثمة تفسيــرًا لفقدان الذاكرة الهستيرى» .

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*, p. 77-8.

٢٠ - القاعدة الأساسية :

Grundregel
Fundamental Rule
Régle fondamentale

وتسمى أحــيانًا بقــاعدة التــداعى المطلق أو الحر ، وهى عــبارة عن ميثاق يتعهد فيه المــريض - منذ بداية العلاج التحليلى - بالتعبير عن كل

ما يجول بخلده دون حذف أو اختيار إراديين . فهى تعارض لإتجاه السائد نحو السكوت عن الخواطر المؤلمة وعدم التصريح بها للنفس والغير معارضة مطلقة . فالغاية من تطبيقها إذن معارضة عوامل الكبت المسئولة عن تكوين المرض النفسى . وبعبارة أدق إن أطلق المريض حوافزه دون تقييد شعورى أو إرادى ، فإنه لا يلبث أن يكشف بالتدريج عن المضمونات النفسية المكبوتة فى اللاشعورية وعن الحيل النفسية اللاشعورية المسئول عن هذا الكبت . وبإخضاع هذه الحيل وتلك المضمونات للتحليل المستمر يتحقق حل الصراع النفسى وما يفضى إليه من مختلف الأمراض .

ومن الناحية التاريخية ، لم يتأدى فرويد إلى فكرة التداعى المطلق وتطبيقها فى العلاج النفسى إلا بعد أن استعان أولاً بالتنويم المغناطيسى ثم بالإيحاء بوصفهما وسيلتين للنفاذ إلى بواطن اللاشعور وكشف خفاياه. وقد بنى فكرة التداعى المطلق – من الناحية النظرية – على إيمانه المطلق بالحتمية النفسية أو بالأحرى على افتراض أن الظواهر النفسية جميعًا ذات معنى . وبوضع قاعدة التداعى المطلق أصبح التحليل النفسى طريقة مستقلة عن «طريقة التنفيس» Cathartic Method التى ابتكرها بروير Breuer واستخدمها بالاشتراك مع فرويد فى دراسة الهيستيريا وعلاجها فى الفترة ما بين ١٨٨٢ – ١٨٩٥ . وكانت هذه الدراسة نقطة البدء لتفكير فرويد فى معنى الأمراض النفسية وعلاجها مما أفضى به فى

النهاية إلى وضع طريقة التحليل النفسى والقيام بالاكتشافات الثورية فى مجال التحليل النفسى والعلوم الإنسانية عامة .

راجع :

E. Jones : *Sigmund Freud, Life & Work*. Vol. I, *The Young Freud* : The Breuer Period.

قارن : مستدعيات :

٢١ - كف : Hemmung Inhibition

فى التحليل النفسى يدل الكف على «التقييد الوظيفى للأنا ، وهو تقييد يرجع إلى أسباب منوعة . . ويمكن تمييز هذا الاتجاه أيسر تمييز فى حالات الكف النوعية . فإن لحق العزف على البيان والكتابة والمشى ضروب الكف العصابى فإن التحليل يمدنا بالسبب . فالأعضاء التى تستخدمها هذه الوظائف قد اكتسبت معنى جنسيًا مفرطًا . ونحن نعرف عامة أن الوظيفة التى يؤديها عضو فى خدمة الأنا تقل كلما زادت شحنتها الشهوية أو معناها الجنسى . . فإن اتخذت الكتابة ، وهي تنحصر فى إراقة سائل من القلم على صفحة بيضاء . معنى الجماع الرمزى وإن أصبح المشى هو المقابل الرمزى لمس جسم الأرض - الأم ، توقف هذان الفعلان، الكتابة والمشى ، لأن القيام بهما يعنى ممارسة نشاط

جنسي محـرم . والأنا يتخلى عن هذين الوظيفتـين اللتين تعتمـدان عليه لكى لا يقوم بمحاولة كبت جديد ومن ثمة لتجنب صراع مع الهو .

وثمة ضروب أخـرى من الكف تصدر بوضوح عن رغبـة فى عقاب الذات وتلك هى غالبًا حالة أنواع كف النشاط المهنى . فقد منع الأنا من ممارسة بعض أنواع النشاط التى تعود عليه بالفائدة والتوفيق والنجاح لأن الأنا الأعلى الصارم حرم عليـه ذلك . والأنا يتخلى ههنا عن هذه الأنواع من النشاط حتى لا يدخل فى صراع مع الأنا الأعلى»

راجع :

S. Freud : *Inhibitoin ; Symptôme et angoisse*, p. 4-5, P.U.F. Paris

٢٢ - : ليبيدو Libido :

١ – المعنى الضيق لهذا المصطلح هو البحث عن الإشباع الجنسى. يقول فرويد: «لتفسير الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان نستعين فى علم الحياة بفرض وجود «غريزة جنسية»، كما نفترض غريزة التغذية لتفسير الجوع. غير أن ليس فى اللغـة الدارجة، فيما يتعلق بالحاجة الجنسية، ما يقابل كلمة جوع، لذلك يستخدم العلم كلمة ليبيدو» .

S. Freud : *Trois essais*, p. 19 .

٢ – المعنى الثانى لهذا المصطلح : طاقة غريزة الحياة التى تتوزع بين الأنا (الليبيدو النرجسى) والموضوعات أو الأشخاص (الليبيدو الموضوعى) . فهو من ثمة «الطاقة (وتعتبر مقداراً كمياً لا يمكن قياسه حاليًا) الطاقة التى تدخل فى كل ما تتضمنه كلمة «حب» . وجوهر ما نعنيه بالحب يتكون من الحب الجنسى الذى يستهدف الاتصال الجنسى (وهو ما يسمى عادة بالحب ويتغنى به الشعراء) . بيد أننا لا نفصل عن هذا المعنى كل ما له أية حصة من اسم الحب – من ناحية حب الذات ومن ناحية أخرى حب الوالدين والأطفال والصداقة وحب الإنسانية على وجه العموم ، بالإضافة إلى الولاء للموضوعات العينية والأفكار المجردة» .

S. Freud : *New Introductory Lectures on Pscho-analysis*, p. 134.

ويمكن التعقيب على هذا التوسع فى مفهوم الليبيدو بالإشارة إلى اكتشاف فرويد وجود النشاط الجنسى فى صور معينة فى عهد الطفولة من ناحية وفى الانحرافات الدائمة أو العابرة من ناحية أخرى . بحيث لا يكون معنى الجنسى مطابقًا لمعنى التناسلى . وهذا التوسع له ما يقابله فى ميدان الحياة النفسية ، فالحياة النفسية كما علمنا التحليل النفسى

للأحـلام والأعراض المـرضيـة ليست الشـعور ولكنهـا أيضا اللاشعـور والقبلشعور .

٣ - يدل مفهوم الـليبيدو عند يونج على الطاقة النفسـية : يقول : «أطلق اسم الليبيدو على الطاقة النفسية فى عمومها . وفرضى الأصل هو أن النفس ، إن صح أنها تكوّن نسـقًا مغلقًا نسبيًا ، حاصـلة على جهد من الطاقة مسـاويًا لنفسه خلال كل مظاهر الحـياة أى أنه إذا أوقفت الطاقة إحدى مظاهرها فإنها تتجلى فى مظهر آخر» .

C. C. Jung : *L'homme à la décovuerte de son âme*, p. 184. Editions du Mont Blanc, Genéve 1946.

٢٣ - مبدأ اللذة

Lust prinzip
Pleasure Principle
Principe de plaisir

مبدأ الواقع :

Realitaet prinzip
Reality Principle
Principe de Réalité

هما المبدأن المـتعارضان اللذان يسيطران على العمليـات النفسية فى نشأتها وتطورها . يقول فرويد : «لقد عودنا أنفسنا فى ميدان علم النفس

الذى أساسه التحليل النفسى أن نبدأ بالعمليات النفسية اللاشعورية التى عرفنا خصائصها من خلال التحليل . ونعتبرها أقدم العمليات الأولية وأنها بقايا مرحلة من التطور كانت فيها النوع الوحيد من العمليات النفسية. ومن السهل تبين الإتجاه الغلاب المهيمن على هذه العمليات الأولية ، فهو ما يسمى بمبدأ اللذة - الألم (Lust - Un lust prinzip) أو مبدأ اللذة على وجه الإيجار . وهذه العمليات تنزع للحصول على اللذة. والنشاط النفسى يتخلى (بالكبت) عن أى عملية تتسبب فى التنغيص (الألم) . وإن أحلامنا الليلية وميلنا الواعى إلى إقصاء انطباعاتنا المؤلمة شواهد باقية على غلبة هذا المبدأ وأدلة على قوته .

إنى إذ أفترض أن حالة الاتزان النفسى اختلت بتأثير المطالب الملحة للحاجات الداخلية ، استرجع آراء بسطتها فى موضع آخر . ففى الموقف الذى أفحصه نجد أن كل ما هو موضوع للتفكير (أو الرغبة) فإنه يتخيل فى صورة هلواسية ، كما لا يزال يحدث الآن لأفكار أحلامنا كل ليلة . وهذه المحاولة للإشباع عن طريق الهلوسة تُركت نتيجة لغياب الإشباع المترقب بسبب خبرة خيبة الأمل . فكان لابد للجهاز النفسى عوضًا عن ذلك أن يقرر تصور الأحوال الواقعية للعالم الخارجي وأن يروض نفسه على تعديلها . وعلى هذا المنوال ظهر مبدأ جديد للنشاط النفسى ، فلم يعد موضوع التصور ما هو لاذٌ بل ما هو واقعى وإن كان مؤلمًا . وقد تبين أن قيام مبدأ الواقع خطوة هامة»

S. Freud : Formulation regarding the two Principles in mental Functioning, *Collected Papers*. IV, p. 13-14.

ويدل مبدأ اللذة على إتجاه الكائن العضوى فى الصور البدائية من سلوكه (أى فيما يسمى بالعمليات الأولية اللاشعورية) إلى الحصول على اللذة وتجنب الألم دون اعتبار لمقتضيات الواقع . أما مبدأ الواقع ، وهو ناتج عن تعديل مبدأ اللذة تعديلاً تدريجيًا بتأثير الخبرات المؤلمة ، فيستهدف إشباع حاجات الكائن العضوى مع مراعاة التوافق مع الواقع .

٢٤ - مستدعيات : Assoziationen Associations

فى التحليل النفسى يقصد بالمستدعيات المواد النفسية - الشعورية واللاشعورية - التى ترد إبان العلاج حين يلتزم المريض بقاعدة التداعى الحر فيعبر عن أفكاره ومشاعره كما ترد على نفسه دون حذف أو اختيار قصديين . وهذه المستدعيات قد تكون أفكاراً أو أخيلة أو ذكريات أو زلات غير مقصودة أو انفعالات أو عواطف أو أحاسيس عضوية إلخ . وهى ترتبط فيما بينها إرتباطًا ذا معنى يمكن قراءته . يقول فرويد : «القاعدة فى التحليل النفسى أن رابطة داخلية لم تكشف بعد تنم عن نفسها عن طريق التجاور - القرب الزمنى للمستدعيات تمامًا كما هو الشأن فى الكتابة إذ أن تجاور (أ) و (ب) . يعنى أنه ينبغى أن تكون منهما المقطع (أ ب) .

راجع :

S. Freud : Dora Case, *Collected Papers* III p. 49. Hogarth Press, London.

٢٥ - المعادلة الشخصية :

personlich Gleichung
Personal Equation
Equation personnelle

اصطلاح مستمد من لغة الفلكيين ، وهو يدل أصلاً على خطأ يقع فيه الفلكيون عند تحديد لحظة مرور كوكب بخط الزوال باستخدام ما يسمى بطريقة «العين والأذن» . وهو خطأ فى التقدير يختلف باختلاف الأفراد وإن كان يميل إلى أن يكون هو هو بالنسبة لنفس الفرد . وكان ماسكيلين (١٧٩٥) هو أول من اكتشفه وقام بيسيل (١٨٢٠) بدراسته فاقتراح تصحيحًا للقياسات التى يقوم بها كل فرد ، اسمه المعادلة الشخصية ، الغاية منه رفع العامل الشخصى عن القياسات الموضوعية .

ويستخدم الاصطلاح فى علم النفس للدلالة عن تشويه الحكم نتيجة لتدخل العوامل الشخصية فى الفحص النفسى تدخلاً يؤدى إلى أخطاء متماثلة فى التقدير .

ولا سبيل إلى تصحيح المعادلة الشخصية فى علم النفس إلا بالتدريب المستمر من ناحية والتحليل النفسى للباحث نفسه من ناحية

آخرى بحيث لا تتدخل النزوات الشخصية فى التقدير إلا فى أضيق الحدود وتكون دائمًا موضع ضبط شعورى .

راجع فى هذا الصدد مقالة :

S. Rosenzweig : The experimental Situation as a psychological Problem, *Psychol. Rev.* 1933. 27.

٢٦ - المضمون الظاهر للحلم :

Manifest Trauminhalt
Manifest Content
Contenu manifeste

أفكار الحلم الكامنة :

latent Traumgedanken
latent dream - thought
Pensée latente du reve

الحلم لغة مصورة أشبه بالكتابة المصرية القديمة : تلك هى مركز نظرية فرويد فى طبيعة الحلم . يقول : «هب أمامى لغزًا من الألغاز المصورة : منزل أرى على سطحه مركبًا ، ثم حرفًا واحدًا من الحروف الأبجدية ، ثم شخصًا يجرى منزوع الرأس إلخ . لقد انزلق إلى النقد معلنًا أن هذه الصورة غير معقولة فى كلها أو فى أجزائها فما شأن المركب بسطح المنزل ؟ وكيف لرجل يجرى منزوع الرأس ؟ ثم إن

الرجل أكبر حجما من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور منظرًا طبيعيًا فليس هذا محل الحرف الأبجدى ، فالطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية . ولكن من الواضح أننا نوفق إلى الحكم على هذا اللغز حكما صحيحا حين ندع جانبًا أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة فى مجموعها وفى أجزائها ، وحاولنا بدل ذلك أن نبدل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعا أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الأنحاء . فإن فعلنا فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه . والحلم لغز مصور من هذا القبيل» . تفسير الأحلام من ٢٩١-٢٩٢ .

فالحلم يتطلب نوعًا من الترجمة تظهر النص الأصلى (أفكار الحكم الكامنة) الذى ظهر فى الحلم فى صورة رمزية . ولا مناص من تطبيق قاعدة التداعى المطلق (انظر القاعدة الأساسية) لتحديد العناصر التى يومىء إليها الحلم إيماء أو يدل عليها دلالة ملتوية أو يشير إليها إشارة محرفة مشوهة . ومتى حصلنا على هذه العناصر التى صاغها الحلم وفقًا لقوانينه التى هى فى نفس الآن قوانين اللاشعور ، تمكنا من فهم الحلم وعرفنا مقصده على وجه الدقة . ومن ثمة يبدو تأويل الحلم وكأنه يسير فى نفس الطريق الذى سلكه الحلم إبان تكوينه ولكنه يسير فيه فى إتجاه مضاد له

انظر : فرويد : تفسير الأحلام ص ٢٩١-٢٩٢ . ترجمة مصطفى صفوان ، المعارف : القاهرة ١٩٥٨ .

٢٧ - منطقة شهوية :

Erogene Zone
Erotogenic Zone
Zone érogàne

من اكتشافات التحليل النفسى الأساسية وجود تاريخ طويل للدوافع الجنسية سابق على مرحلة النضج الجنسى الفزيولوجى فى المراهقة . وقد تأدى فرويد إن كشف الجنسية تدريجيًا إبان اقتفائه - فى علاج المرضى العصابيين - أثر الصدمات النفسية المسئولة عن ظهور مختلف الأعراض المرضية ومن خلال دراسة الانحرافات الجنسية دراسة شاملة ، ففى كلتا الحالتين ميول جنسية لا ريب فيها وإن كانت تتميز بتمركزها فى مناطق شهوية غير المنطقة التناسلية وباختلاف موضوعاتها وأهدافها عن موضوعات الدوافع الجنسية التناسلية وأهدافها .

وهذه المناطق مصدر لإشباع غرزى مصحوب بلذة . وعند النضج الجنسى السوى تفقد أهميتها الأولى وتحتل مكانة ثانوية بالنسبة للمنطقة التناسلية التى تصبح لها السيادة . والمناطق الشهوية ثلاث : الفم والشرج والقضيب . والتطور الليبيدى يمر بمراحل تغلب فى كل مرحلة منها إحدى هذه المناطق وتنطبع فيها الشخصية بطابع مميز . والمراحل الليبيدية أربع على التوالى : المرحلة الفمية ثم المرحلة الشرجية ثم المرحلة القضيبية ثم المرحلة التناسلية . وانتقال الفرد من مرحلة إلى

أخرى لا يعنى اختفاء المرحلة السالفة ، فثمة تداخل محتوم والتمييزات تقريبية . وقد رسم أبراهام صورة مفصلة لمراحل التطور الليبيدى وما يقابلها من مراحل العلاقات بالموضوعات ، أصبحت من مقرراتنا التحليل النفسى :

مراحل التنظيم الليبيدى	مراحل الحب الموضوعي
٦ - المرحلة التناسلية النهائية .	حب الموضوع (ما بعد ثنائية الميول)
٥ - المرحلة التناسلية المبكرة (القضيبية)	حب الموضوع مع استبعاد الأعضاء التناسلية
٤ - المرحلة الشرجية السادية المتأخرة	حب جزئى
٣ - المرحلة الشرجية السادية المتقدمة	حب جزئى وإدماج للموضوع
٢ - المرحلة الفمية المتأخرة (افتراس البشر)	النرجسية (إدماج شامل للموضوع)
١ - المرحلة الفمية المتقدمة (الرضاعة)	عشق الذات (بدون موضوع) سابق على ثنائية الميول

راجع :

S. Freud : *Trois essais sur la théorie de la sexualité*

K. Abraham : A short History of the Development of the Libido, viewed in the light of mental Disorders. *Selected Papers.*

٢٨ - المنظمات النفسية : Instanzen Instances

يفترض التحليل النفسى وجود جهاز نفسى أجزاؤه ذات وضع مكانى (فرض المحل النفسى) ونموذجه الفعل المنعكس (بطرفيه الحسى والحركى) وأول تصور لهذا الجهاز يقسمه إلى ثلاثة أقسام هى الشعور وما قبل الشعور واللاشعور .

يقول فرويد : «إن الشعور تعبير وصفى خالص يصدق على أكثر المدركات مباشرة ويقينا . ولكن التجربة تدلنا على أن عنصراً نفسيًا ما ، كالتصور مثلاً ، ليس شعوريًا على نحو دائم . وإن ما يميز بالأحرى العناصر النفسية ، اختفاء حالة الشعور عنها اختفاء سريعًا . فقد يكون تصور ما شعوريًا فى لحظة معينة ولا يكون فى اللحظة التالية ولكنه قد يرجع إلى حالته الأولى فى ظروف معينة سهلة التحقيق . وفى الفترة المتوسطة نجهل ما يكون عليه ، وقد نقول إنه ضمنى ونعنى بذلك أنه قد يصبح شعوريًا فى أية لحظة . وفى قولنا إن تصوراً ما قد ظل لاشعوريًا فى الفترة المتوسطة ، نصوغ تعريفًا صحيحًا إذ أن الحالة اللاشعورية هذه تطابق حالة الكون وقابلية العودة إلى الشعور .

. . . بيد أننا نعرف أن ثمة صنفين من اللاشعور : الوقائع النفسية الضمنية القابلة أن تصبح شعورية والوقائع النفسية المكبوتة التى لا

تستطيع- بمـا هى عليه وفى حد ذاتها - أن تبلغ الشـعور . . لذلك نقول إن الوقائع النفسـية الضمنية أى اللاشعورية بـالمعنى الوصفى لا الدينامى للكلمة ، هى وقـائع قبلشـعورية بينما نسـتبقى كلـمة لاشعـورية للوقائع النفسيـة المكبوتة أى اللاشعورية من الناحيـة الدينامية . فلدينا إذن ثلاثة حدود : شـعورى ، قـبلشعـورى ولا شعـورى ، ومعناها ليس وصـفيا بحتًا».

S. Freud : *Essais de psychanalyse*, p. 166-7.

بيد أن فرويد لـم يلبث أن عدل هذا التصور الأول للجهاز النفسى لما تحـقق له ما يلى : - إن الأنـا ليس مرادفًا للشـعـور كمـا يفتـرض هذا التصـور، إذ أن ثمة جانبًا لاشعـوريًا فى الأنا يتمثل فى مخـتلف ضروب المقاومـة اللاشعورية ، ممـا يجعل من الخطأ مثلاً تصويـر العصاب بأنه صراع بين الشعور واللاشعور . ومن جـهة أخرى فليس اللاشعور قاصرا على العناصـر المـكبـوتة ، بل من المـمكن تصـور وجـود العـمليـات اللاشعـورية فى المبـدأ قبل أى تنظيم نفـسى لاحق . أضف إلى هذا أن الطفل إذ يتـوحد بالوالد من نفس الجنس فى الـمرحلة الأوديبـية - وهو توحد يتم على نحو لاشعورى أيضًا - يكتسب منه نواة الضمير الأخلاقى. لكل هذه الاعتبارات عدل فرويد تقسيم الجهاز النفسى إلى شعور وقبلشعور ولاشعـور فجـعل منه منظمات نفـسيـة ثلاث هى : الهو (بالألمـانية Es وبالإنجليزية Id والفرنسية Ca) والأنا (بالألمانية Ich والإنجليزية Ego

والفرنسية Moi) والأنا الأعلى (بالألمانية Uber-Ich وبالإنجليزية Sup-er-Ego والفرنسية Surmoi) وتتبع نشأة كل منـها ، وخص كل منظمة منها بوظائف نفسية معينة ، واضعًا بذلك أسس ما يسمى فى التحليل النفسى المعاصر باسم «سيكولوجيا الأنا» Ego Psycholgy .

راجع :

S. Freud : *Essais de psychanalyse*. Payot, Paris 1948.

٢٩ - ميل مزدوج : Ambivelenz Ambivalence

مصطلح أتى به بلوليز Bleuler (1911) فى معرض ذكـره السمات المميزة لمـرض الفصام . فـالمريض بالفـصام يتخـذ من الموضـوعات والأشـخاص مـواقف موجـبة وسـالبـة فى نفس الآن . ففى المـستـوى الانفـعالـى هناك الحب والكراهيـة لنفس المـوضوع وفى الوقـت نفسـه (Affective ambivalence) وفى المسـتوى الإرادى يعبـر المريض عن الرغبـة ونقيضـها ، الأكل وعدم الأكل مـثلاً (Ambivalence of the will) وفى المستوى العقلى يؤكد المريض فى آن واحـد القضية ونقيضها . «أنا فلان ، أنا لست فلانًا» (Intellectual ambivalence) .

وقد اقتبس فرويد هذا المفهوم وأسبغ عليه معنى ديناميًا جديدًا فدرس على هذه الدوافع الغرزية فى نشأتها وتطورها ، مبـينًا كيف تتميز الدوافع

الأولى بشدة الثنائية وكيف تبقى الدوافع المـميزة لمرحلة من مراحل تطور الليبيدو بجانب الدوافع الجديدة وكيف تتحول الدوافع إلى نقيضها :

راجع :

E. Bleuler : *Dementia Praecox or the Group of Schizophrenias*, p. 53. Intern. University Press N. 1558 p.

قارن : المناطق الشهوية :

٣٠ - نقل : Verschiebung
Displacement
Déplacement

عملية نفسية لاشعـورية تنحصر فى نقل دافع معين أو انفعال بالذات من موضوعـهما الأصلى إلى موضوع بديل : وهى الحيلة الأسـاسية التى تستخدم فى أعـصبة المخاوف (Phobias) للتحكم فى الـقلق المرضى . مـثال ذلك أن الـخوف المـرضى من عـضـة الحصـان فى حـالة الطفل «هانس»، خوف منقـول من شخصـية الوالد الذى يهدد الطفل بالخـصاء لرغبته فى الأم - وفقًا للموقف الأوديبى - إلى الحيوان موضوع الخوف .

راجع :

S. Freud : Analysis of a case of Phobia in a five-year-

old boy. *Collected Papers* III. Hogarth Press, London 1950.

٣١ - نكوص Regression :

يدل مفهوم النكوص فى التحليل النفسى على عدد من الظواهر النفسية تتميز جميعها بتقهقر النشاط النفسى إلى مرحلة سابقة من مراحل تطور الليبيدو . وهذا «الرجوع إلى الوراء» قد ينحصر فى العودة إلى موضوع الإشباع التى تتميز به مرحلة سابقة أو الرجوع إلى حال مبكر من أحوال الأنا (وهو ما يحدث فى الأمراض الذهانية) . فالنكوص زمنى بهذه المثابة. وثمة نوع آخر من النكوص يسميه فرويد بالنكوص المحلى (topical) ويقصد به عودة الإثارة فى الجهاز النفسى من القبلشعور إلى اللاشعور (كما هو فى الحلم مثلاً) .

ويتضمن النكوص وجود نقط فى تطور الفرد ثبت عندها الإشباع الغرزى (نقط التثبيت) يعود إليها الفرد كلما أصبح الإشباع محالاً فى المستوى الأعلى الذى بلغه . كذلك يتضمن النكوص وجود حرمان من الإشباع فى الوقت الحاضر هو المسئول عن إرتداد الليبيدو إلى مراحله السابقة التى توفر إشباعًا نكوصيًا .

راجع :

S. Freud : Complément métapsychologique á la doctrine des réves. *Métapsycholoie*, Callimard, Paris 1952.

٣٢ - هذيان :

Wahn
Delusion
Délire

اعتقاد مرضى فى وقائع غير حقيقية أو فى تصورات خيالية لا أساس لها من الواقع . وأكثر موضوعات الاعتقاد شيوعا هى العظمة والاضطهاد والغيرة والذنب إلخ . والمريض يعمل على تبريره ، مستعينًا فى ذلك بالتفسيرات الزائفة أو بالمدركات الحسية المتوهمة (الهلاوس) . والهذيان يشتمل على عناصر منطقية تتفاوت أهميتها من مرض إلى آخر كما يختلف مدى استخدامها فى بناء الهذيان ذاته . ففى البرانويا مثلا يبلغ هذا البناء أوج اتساقه المنطقى وبعده عن الواقع فى آن .

وقد درس فرويد طبيعة هذه الظاهرة موضحًا مغزاها الدينامى من حيث علاقتها بحيل دفاع الأنا . فبين أن المرض العقلى - البارانويا مثلا -- يمر بمرحلتين : مرحلة أولى - هى مرحلة المرض بالذات وتقابل الكبت فى الأمراض العصابية - تتقطع فيها الروابط الليبيدية بالعالم والأشخاص تقطعا تدريجيًا ، حتى يحيا المريض خبرة «نهاية العالم» . وتلى هذه المرحلة مرحلة أخرى أشبه ما تكون بمحاولة تلقائية للشفاء تعود فيها الروابط بالموضوعات على نحو سلبى فى هيئة أفكار الهذاء ويقوم فيها الإسقاط بدور جوهرى .

راجع :

S. Freud : The Schreber case. *Collected Papers* III.

٣٣ - هلواس : Halluzination Hallucination

إدراك حسي بدون موضوع خارجي وهو ينتج عن تجسيم ظواهر ذاتية تجسيمًا موضوعيًا يتميز بما يلى :

١ - للظاهرة صفة محسة (فالمريض يرى ويسمع ويحس كما لو كان ثمة منبه حقيقى) .

٢ - للظاهرة وجود مكانى (فالموضوع الهلواسى يسقطه المريض على المكان الخارجي وفى إتجاه معين منه) .

٣ - الاعتقاد الخاطىء فى وجود منبه حسى . فإن لم يتوفر أى من هذه الشروط كان لنا ما يسمى بالهلواس الكاذب Pseudo- hallucination .

وقد تتبدى الهلاوس فى كل ميادين الإدراك الحسى . ومن ثمة فهناك هلاوس بصرية وسمعية وشمية وذوقية وحركية وهلاوس تتعلق بالحساسية العامة ، وأخرى جنسية وأخيراً فثمة هلاوس تتصل بأكثر من حاسة فى آن .

وإن اقتصرت الهلاوس على انطباعات مبهمة غير مميزة (طنين أو وميض إلخ) سميت بالهلاوس الأولية وإن اكتسبت هيئة موضوعات محددة (أشخاص وحيوانات وأقوال إلخ) سميت بالهلاوس المركبة .

والهلاوس أصول عدة : فسيولوجية وعصبية (سطحية ومركزية) ونفسية . ولا يمكن تفسير الظاهرة فى إطار نظرية تؤكد أحد هذه الأصول دون الأخرى .

ويتناول فرويد الهلاوس من حيث إنه تعبير نكوصى عن الرغبة فى الحلم والأحوال المرضية والذهانية على وجه التخصيص . يقول : «ولكن الأحلام تختلف عن أحلام اليقظة فى خاصيتها الثانية وهى أن محتواها الفكرى يستحيل إلى صورة حسية يضيف إليها المرء تصديقه ويعتقد أنه يعيشها . . . ثم إن من الواجب ألا ننسى أن مثل هذا التحويل من الأفكار إلى الصور الحسية لا يقع فى الأحلام وحدها بل يقع أيضًا فى الهلاوس والرؤى التى تظهر ظهوراً أشبه بالمستقبل فى حالات الصحة أو من حيث هى أعراض فى حالة الأعصبة النفسية» .

راجع فرويد : تفسير الأحلام ص ٥٢٧ . ترجمة مصطفى صفوان ، المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

الفهرست

الموضـــــوع	الصفحة
تنبيه	١٠
ملاحظة تمهيدية	١٢
القسم الأول : طبيعة الحياة النفسية	١٣
الفصل الأول : الجهاز النفسى	١٥
الفصل الثانى : نظرية الغرائز	١٩
الفصل الثالث : نمو الوظيفة الجنسية	٢٤
الفصل الرابع : الكيفيات النفسية	٣١
الفصل الخامس : تعليق على تفسير الأحلام	٤٢
القسم الثانى : المهام العملية	٥٣
الفصل السادس : فن التحليل النفسى	٥٥
الفصل السابع : مثال للعمل التحليلى	٧١
القسم الثالث : المحصول النظرى	٨٩
الفصل الثامن : الجهاز النفسى والعالم الخارجى	٩١
الفصل التاسع : العالم الداخلى	١٠٥

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموجز فى التحليل النفسى

I.S.B.N ٢٠٠٠/١١٣٣٩
977-01-6847-5

١٧٢



هـذا هـو العـام السـابع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» ..
ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقـافى الضخـم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام،
واستجبنـا لهـذا المطلبْ الجمـاهيـرى العـزيز إيمـانًا منـا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى
إعـادة صيـاغـة وتشكيـل وجـدان الأمـة واستعـادة دورهـا
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى
الكتاب مصدرًا هامًا وخالـدًا للثقافـة فى زمـن الإبهـارات
التكنـولوچيـة المعـاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام
السـابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التـى أصـدرت (١٧٠٠)
عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة
المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتـراثًا لايبلى من أجـل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع